الكتاب : التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج

المؤلف : وهبة بن مصطفى الزحيلي

الموضوع : فقهى و تحليلى

القرن : الخامس عشر

الناشر : دار الفكر المعاصر

مكان الطبع : بيروت دمشق

سنة الطبع : ١٤١٨ ق

تنبيه [الترقيم داخل الصفحات موافق للمطبوع]

فتعجب أبرهة ، وقال : أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك ، وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك ، قد جئت لهدمه ، لا تكلمني فيه ؟ ! فقال له عبد المطلب : إني أنا رب الإبل ، وإن للبيت رباً سيمنعه عنك ، قال : ما كان ليمنع مني ، قال : أنت وذاك « ١ » . وكان قد عرض عبد المطلب ومن معه من أشرف العرب على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن البيت ، فأبى عليهم ، وردّ أبرهة على عبد المطلب إبله ، ثم رجع وأتى باب البيت ومعه نفر من قريش ، وأخذوا بحلقة باب الكعبة يدعون الله ، ويستنصرونه على أبرهة وجنده.

ثم زحف الجيش نحو البيت ودخلوا مكة ، وكان معه فيل عظيم اسمه « محمود » كلما وجهوه إلى جهة الحرم ، برك ولم يرح ، وإذا وجهوه إلى جهة اليمن أو إلى سائر الجهات هرول . وفي اليوم التالي وبينما عبد المطلب يدعو ، التففت ، فإذا هو بطير من نحو اليمن جهة البحر ، فقال : والله إنها لطير غريبة ، ما هي بنجدية ولا تهامية .

وكان مع كل طائر أحجار تحملها بمناقيرها وأرجلها ، فألقنتها عليهم ، لا تصيب منهم أحدا إلا هلك . وفرّ الجيش هاربين نحو اليمن ، يتساقطون في الطريق ، وأصيب أبرهة في جسده ، وبدأت أنامله تسقط أنملة أنملة ، ولحمه يتساقط ، حتى قدموا به « صنعاء » فمات شراً ميتة « ٢ » .

(١) سيرة ابن هشام : ١ / ٤٩ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق : ١ / ٤٣ - ٥٧

وكان لهذه الهزيمة أثر كبير في التاريخ وبين العرب ، فأعظموا قريشا ، وقالوا : هم أهل الله ، قاتل الله عنهم ، وكفاهم العدو ، وازدادوا تعظيما للبيت ، وإيمانا بمكانه عنه الله « ١ » .
وأراد الله بهذا الحادث تعظيم بيته ، وإعلاء شأنه ، وتهيئة أمة العرب لحمل رسالة الإسلام إلى العالم كله.

(٣٩٣/٣٠)

وكان ذلك الحدث التاريخي المهم في عام ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم ، سنة ٥٧٠ م ، أي كان بين عام الفيل ومبعث النبي صلى الله عليه وسلم أربعون سنة. وكان قد بقي بمكة جمع شاهدوا تلك الواقعة ، وقد بلغت حدّ التواتر حينئذ ، فما ذاك إلا إرهاب للرسول صلى الله عليه وسلم.
قصة أصحاب الفيل [سورة الفيل (١٠٥) : الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (٥)

الإعراب :

أَلَمْ تَرَ معناه الإيجاب أي قد علمت لأن همزة الاستفهام لما دخلت على لَمْ وهي حرف نفي ، والاستفهام كالنفي ، اجتمع نفيان ، فلما دخل النفي على النفي ، انقلبت إيجابا.
وَكَيْفَ : في موضع نصب بفعل بعده ، ولا يجوز أن يعمل فيه تَرَ لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله ، وإنما يعمل فيه ما بعده. وجملة كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ سدت مسدّ مفعولي تَرَ لأنها من رؤية القلب بمعنى العلم ، نحو : رأيت الله غالبا. وَرَبُّكَ : فاعل فَعَلَ.

(١) المرجع السابق : ص ٥٧

ج ٣٠ ، ص : ٤٠٧

طَيْرًا أَبَابِيلَ إما جمع لا واحد له من لفظه كأساطير ، أو واحده « إِبِيل » أو إِبُول ، كعجاجيل وحدها عَجُول.

كَعَصْفٍ في موضع نصب ، على أنه مفعول ثانٍ ل فَجَعَلَهُمْ أي صيّرهم.
البلاغة :

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ .. الاستفهام للتقرير والتعجب ، أي أعجب.

فَعَلَ رَبُّكَ إِشَادَةً بِقُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَالخَطَابَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْلِهِ رَبُّكَ تَشْرِيفٌ لَهُ .
فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ تَشْبِيهٍ مَرْسَلٍ مَجْمَلٍ ، ذَكَرْتَ الأَدَاةَ ، وَحَذَفَ وَجْهَ الشَّبْهِ .

(٣٩٤/٣٠)

الفَيْلِ ، تَضْلِيلٍ ، أَبَابِيلٍ ، سَجِيلٍ ، مَأْكُولٍ تَوَافِقِ الفَوَاصِلِ فِي الحَرْفِ الأَخِيرِ .
المفردات اللغوية :

أَلَمْ تَرَ أَيَّ تَعَلَّمَ ، وَالخَطَابَ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَهُوَ إِنْ لَمْ يَشْهَدْ تِلْكَ الوَاقِعَةَ ، لَكِنَّهُ شَهِدَ
آثَارَهَا ، وَسَمِعَ بِالتَّوَاتُرِ أَخْبَارَهَا ، فَكَأَنَّهُ رآهَا ، فَإِنَّهَا مِنَ الإِرْهَاصَاتِ لِأَنَّهَا وَقَعَتْ فِي السَّنَةِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا
الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . بِأَصْحَابِ الفَيْلِ أَصْحَابِ الفَيْلِ العَظِيمِ الَّذِي كَانَ اسْمُهُ « مَحْمُودٌ » .
وَهُمْ أِبْرَهَةَ بِنُ الصَّبَاحِ الأَشْرَمِ مَلِكِ اليَمَنِ مِنْ قَبْلِ أَصْحَمَةَ النَجَاشِيِّ ، وَجَيْشُهُ الَّذِينَ أَرَادُوا هَدْمَ الكَعْبَةِ
لِصَرْفِ الحِجَاجِ العَرَبِ عَنِ مَكَّةَ إِلَى كَنِيسَةِ بَنَاهَا أِبْرَهَةُ بِصَنْعَاءَ ، وَسَمَاهَا « القَلْبَيسُ » . فَحِينَ تَوَجَّهُوا
لِهَدْمِ الكَعْبَةِ ، أَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا قَصَّهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ .

أَلَمْ يَجْعَلْ أَيَّ جَعَلَ . كَيْدَهُمْ مَكْرَهُمْ وَتَدْبِيرَهُمْ بِتَخْرِيْبِ الكَعْبَةِ وَتَعْطِيلِهَا . فِي تَضْلِيلٍ تَضْيِيعٍ وَإِبْطَالِ
وَهَلَاكٍ وَخَسَارَةٍ . طَيْرًا مَا طَارَ فِي الهَوَاءِ ، صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا .
أَبَابِيلَ جَمَاعَاتٍ مُتَفَرِّقَةٍ . سَجِيلٍ طِينٍ مُتَحَجَّرٍ . كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ كُورِقٍ زَرَعٌ يَبْقَى بَعْدَ الحِصَادِ ، أَكَلْتَهُ
الدُّوَابُ وَدَاسْتَهُ وَأَفْنَتَهُ ، أَوْ كَتَبْتَ أَكَلْتَهُ الدُّوَابُ وَرِاثَتَهُ .

التفسير والبيان :

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفَيْلِ أَلَمْ تَعْلَمْ عِلْمَ اليَقِينِ ، وَكَأَنَّكَ شَهِدْتَ الوَاقِعَةَ ، بِمَا صَنَعَ رَبُّكَ
العَظِيمِ القَدِيرِ بِأَصْحَابِ الفَيْلِ ، حَيْثُ دَمَرَهُمُ اللَّهُ ، وَحَمَى بَيْتَهُ الحَرَامَ ، أَفَلَا يَجْدُرُ بِقَوْمِكَ أَنْ يُؤْمِنُوا
بِاللَّهِ ؟ ! وَقَدْ شَهِدَ أَنَاسٌ

ج ٣٠ ، ص : ٤٠٨

منهم الواقعة ، حيث أقبل قوم من النصارى الأبحاش الذين ملكوا اليمن ، إلى الحجاز ، يريدون تخريب
الكعبة ، فلما قربوا من مكة ، وأرادوا دخولها ، أرسل الله عليهم جماعات من الطيور محملة بحجارة ،
ألقتها عليهم ، فأهلكتهم .

(٣٩٥/٣٠)

أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ أَي أَفْسَدَ خَطَّتَهُمْ وَمؤامرتهم ، والمعنى : ألم تر أن ربك جعل مكرهم وتدبيرهم وسعيهم في تخريب الكعبة ، واستباحة أهلها ، في تضليل عما قصدوا إليه ، وفي ضياع وإبطال ، حتى لم يصلوا إلى البيت ، ولا إلى ما أرادوا بكيدهم ، بل أهلكهم الله تعالى . والكيد : هو إرادة مضرّة بالغير على الخفية.

وإذا علم قومك هذا الأمر ، فليخافوا أن يعاقبهم الله بعقوبة مماثلة ، ما داموا يصرون على الكفر بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلّم وكتابه الكريم ، ويصدون الناس عن سبيل الإيمان الحق بالله عزّ وجلّ.

وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ، تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ أَي وبعث الله عليهم جماعات متفرقة من الطيور السود ، جاءت من قبل البحر فوجا فوجا ، مع كل طائر ثلاثة أحجار : حجران في رجليه ، وحجر في منقاره ، لا يصيب شيئا إلا دمره وهشمه.

وهي حجارة صغيرة من طين متحجر ، كالحمصة وفوق العدسة ، فإذا أصاب أحدهم حجر منها ، خرج به الجدرى أو الحصبة ، حتى هلكوا.

فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ أَي فجعلهم فضلات وبقايا مثل ورق الزرع أو الشجر إذا أكلته الدواب ، ثم راثته ، فأهلكهم جميعا.

أخرج البخاري أنه : « لما أطل رسول الله صلى الله عليه وسلّم يوم الحديبية على الشنية التي تهبط به على قريش ، بركت ناقته ، فزجروها ، فألحت ، فقالوا : خلأت

ج ٣٠ ، ص : ٤٠٩

القصواء ، أي حرنت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : ما خلأت القصواء ، وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل . ثم قال : والذي نفسي بيده ، لا يسألوني اليوم خطة يعظمون فيها حرمت الله إلا أجبتهم إليها ، ثم زجرها ، فقامت . »

و

(٣٩٦/٣٠)

في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال يوم فتح مكة : « إن الله حبس عن مكة الفيل ، وسلط عليها رسوله والمؤمنين ، وإنه قد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، ألا فيبلغ الشاهد الغائب . »

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١- هذا الخطاب ، وإن كان للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ولكنه عام ، أي ألم تروا ما فعلت بأصحاب الفيل ؟ أي قد رأيتم ذلك ، وعرفتم موضع منّي عليكم ، فما لكم لا تؤمنون ؟ ! ٢- دلت الواقعة على قدرة الله الصانع وعلمه وحكمته ، وعلى شرف محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأنه يجوز تقديم المعجزات على زمان البعثة ، تأسيسا لنبوتهم ، وإرهاصا لها ، ولذلك قالوا : كانت الغمامة تظله « ١ » . قال أبو حيان : كان صرف ذلك العدو العظيم عام مولده السعيد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إرهاصا لنبوته إذ مجيء تلك الطيور على الوصف المنقول من خوارق العادات ، والمعجزات المتقدمة بين أيدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وقد ظلل (أحبط) كيدهم ، وأهلكهم بأضعف جنوده ، وهي الطير التي ليست من عاداتها أنها تقتل « ٢ » .

٣- دلت القصة أيضا على تكريم الله للكعبة ، وإنعامه على قريش بدفع

(١) تفسير الرازي : ٣٢ / ٩٧

(٢) البحر المحيط : ٨ / ٥١٢

ج ٣٠ ، ص : ٤١٠

العدو عنهم ، فكان يجب عليهم المبادرة إلى الإيمان برسالة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وعبادة الله ، وشكره على نعمائه.

٤- كان إرسال الطير عليهم إرهاصا للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وأما بعد تقرير نبوته فلم يكن هناك حاجة إلى الإرهاص ، لذا لم يعذب الحجاج بتخريب البيت ، ولأنه لم يكن قاصدا للتخريب ، وإنما أراد شيئا آخر ، وهو قتل ابن الزبير.

(٣٩٧/٣٠)

٥- شبه تدميرهم وإهلاكهم وصيرورتهم بعد قصف الطير بالحجارة بصورة قبيحة حقيرة ، تدل على حقارة كفرهم ، وصغار نفوسهم ، وهوانهم على الله ، وتلك الصورة ورق يابس أو تبين تعصف به الرياح ، أكلته الدواب وراثته ، أي كفضلات البهائم ، وذلك يدل أيضا على فنائهم التام لأنه أراد تشبيه تقطيع أوصالهم بتفريق أجزاء الروث.

إلا أن هذا التشبيه جاء على منهج القرآن في أدبه الرفيع ، مثل قوله تعالى في تشبيه عيسى وأمه : كانا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ [المائدة ٥ / ٧٥].

وإنما سلط الله العذاب على أصحاب الفيل ، ولم يسلطه على كفار قريش الذين ملؤوا الكعبة أوثانا لأن أصحاب الفيل قصدوا التخريب ، وهذا تعد على حق العباد ، ووضع الأوثان فيها قصدوا به التقرب إلى

اللَّهِ ، وهو مع ذلك تعدّ على حق الله تعالى ، وحق العباد مقدّم على حق الله تعالى .
٦- قال ابن مسعود : لما رمت الطير بالحجارة ، بعث الله ريحا ، فضربت الحجارة فزادتها شدة ، فكانت لا تقع على أحد إلا هلك ، ولم يسلم منهم إلا رجل من كندة ، فقال :
فإنك لو رأيت ولم تريه لدى جنب المعتمس ما لقينا
خشيت الله إذ قد بث طيرا وظلّ سحابة مرّت علينا
و باتت كلّها تدعو بحق كأن لها على الحبشان دينا
ج ٣٠ ، ص : ٤١١

و يروى أنها لم تصبهم كلهم ، لكنها أصابت من شاء الله منهم. وقد تقدم في القصة التاريخية أن أميرهم أبرهة رجع وشردمة قليلة معه ، فلما أخبروا بما رأوا هلكوا. وذلك للعبرة والعظة.
٧- قال ابن إسحاق : لما ردّ الله الحبشة عن مكة ، عظمت العرب قريشا وقالوا : أهل الله ، قاتل عنهم ، وكفاهم مؤونة عدوهم فكان ذلك نعمة من الله عليهم.
ج ٣٠ ، ص : ٤١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة قريش

مكيّة ، وهي أربع آيات.
تسميتها :

سميت سورة قريش تذكيرا لهم بنعم الله عليهم في مطلع السورة : لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ...

(٣٩٨/٣٠)

مناسبتها لما قبلها :

ترتبط السورة بما قبلها من وجهين :

- ١- كلتا السورتين تذكير بنعم الله على أهل مكة ، فسورة الفيل تشتمل على إهلاك عدوهم الذي جاء لهدم البيت الحرام أساس مجدهم وعزهم ، وهذه السورة تذكر نعمة أخرى اجتماعية واقتصادية ، حيث حقق الله بينهم الألفة واجتماع الكلمة ، وأكرمهم بنعمة الأمن والاستقرار ، ونعمة الغنى واليسار والإمسك بزمام الاقتصاد التجاري في الحجاز ، بالقيام برحلتين صيفا إلى الشام وشتاء إلى اليمن.
- ٢- هذه السورة شديدة الاتصال بما قبلها ، لتعلق الجار والمجرور في أولها بآخر السورة المتقدمة : لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ .. أي لآلف قريش أي أهلك الله أصحاب الفيل ، لتبقى قريش ، ولذا كانتا في مصحف أبي سورة واحدة. ولكن في المصحف الإمام فصلت هذه السورة عن التي قبلها ، وكتب بينهما : بِسْمِ

اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ.

ج ٣٠ ، ص : ٤١٣

ما اشتملت عليه السورة :

تضمنت هذه السورة المكية تعداد نعم الله العظمى على قريش أهل مكة ، حيث جمع الله كلمتهم ، وحقق الألفة والتمام الشمل بينهم : لإيلاف قريش ومكّتهم من التنقل وحرية التجارة إلى اليمن شتاء ، وإلى الشام صيفا ، لتوفير الثروة والغنى : إيلافهم رحلة الشتاء والصيف .
وهيأ لهم في البلد الآمن الحرام نعمة الأمن والاطمئنان والاستقرار دون نزاع من أحد : فليعبُدوا ربَّ هذا البيت ، الذي أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف .
فضلها :

(٣٩٩/٣٠)

روى البيهقي في كتاب الخلافيات عن أم هانئ بنت أبي طالب : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « فضل الله قريشا بسبع خلال : أني منهم ، وأن النبوة فيهم ، والحجابه والسقاية فيهم ، وأن الله نصرهم على الفيل ، وأنهم عبدوا الله عز وجل عشر سنين لا يعبده غيرهم ، وأن الله أنزل فيهم سورة من القرآن ، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . لإيلاف قريش ، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبُدوا ربَّ هذا البيت ، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » .

قال ابن كثير : وهو حديث غريب .

التذكير بنعم الله على قريش [سورة قريش (١٠٦) : الآيات ١ الى ٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إيلاف قريش (١) إيلافهم رحلة الشتاء والصيف (٢) فليعبُدوا ربَّ هذا البيت (٣) الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف (٤)

ج ٣٠ ، ص : ٤١٤

الإعراب :

إيلاف قريش ، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف اللام في « إيلاف » إما متعلقة بفعل مقدر ، تقديره :
عجبوا لإيلاف قريش ، أو متعلقة بقوله : ليعبُدوا ربَّ هذا البيت
أي لأجل هذا ، أو متعلقة بقوله تعالى : فجعلهم كعصف ماكول آخر سورة الفيل .
وإيلافهم : مجرور على البدل من « إيلاف » الأولى ، و « إيلاف » مصدر رباعي ، وهو ألف يؤلف

إيلافًا. وقرئ « إلا فهم » على أنه مصدر فعل ثلاثي ، وهو (ألف يَألفُ إيلافًا).
وَقُرَيْشٌ إن أردت به الحي صرفته ، وإن أردت به القبيلة لم تصرفه.
ورِجْلَةٌ منصوب لأنه معمول المصدر المضاف وهو إيلافهم ، مثل وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ [البقرة ٢ /
٢٥١] [الحج ٢٢ / ٤٠].
البلاغة :

(٤٠٠/٣٠)

الشَّتَاءِ وَالصَّيْفِ بينهما طباق ، وكذلك بين جُوعٍ وَخَوْفٍ.
هَذَا الْبَيْتِ
الإضافة للتكريم والتشريف.
لِإِيْلَافِ قُرَيْشٍ وقوله : لِيُعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ
تقديم ما حقه التأخير ، والأصل : ليعبدوا ربَّ هذا البيت ، لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فقدم
الإيلاف تذكيرا بالنعمة.
جُوعٍ خَوْفٍ التنكير لبيان شدتهما ، أي جوع وخوف شديدين.
المفردات اللغوية :
لِإِيْلَافِ قُرَيْشٍ يقال : آلف الشيء إيلافًا ، وألف إيلافًا وإلفا ، أي لزمه وعكف عليه ، مع الأنس به
وعدم النفور منه ، قال الزمخشري : متعلق بقوله : لِيُعْبُدُوا
أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين ، ودخلت الفاء على لِيُعْبُدُوا
لما في الكلام من معنى الشرط إذ المعنى : أن نعم الله عليهم لا تحصى ، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه ،
فليعبدوه لأجله. وَقُرَيْشٌ مجموعة القبائل من ولد النضر بن كنانة. منقول من تصغير قرش وهو دابة
عظيمة في البحر تعبت بالسفن ، شبهوا بها لأنها تأكل ولا تؤكل ، وتعلو ولا تعلى ، وصغر الاسم
للتعظيم. وقال أبو حيان : سموا بذلك لتجمعهم بعد التفرق ، جمعهم قصي بن كلاب في الحرم ،
والتقريش : التجمع والالتئام.
إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشَّتَاءِ وَالصَّيْفِ أي بسبب إلفهم الارتحال إلى اليمن في الشتاء ، وإلى الشام في الصيف
كل عام ، يستعينون بالرحلتين للتجارة على المقام بمكة ، لخدمة البيت الذي هو فخرهم
ج ٣٠ ، ص : ٤١٥
و مجدهم. والرحلة : ارتحال القوم ، بشد الرحال للمسير. بَيْتِ
الكعبة. أَطْعَمَهُمْ وَسَّعَ لَهُمْ فِي الرِّزْقِ. مِنْ جُوعٍ مِنْ خَوْفٍ أي من أجل جوع وخوف. وَأَمَّنَهُمْ جعلهم في

أمن وسلامة في الأموال والأَنْفُس. مِنْ خَوْفِ خَوْفِ أَصْحَابِ الْفِيلِ ، أَوْ التَّخَطُّفِ فِي بِلَدِهِمْ وَمَسَايِرِهِمْ.
وكان يصيبهم الجوع لعدم الزرع بمكة ، وخافوا جيش الفيل.
سبب النزول : نزول الآية (١) :

(٤٠١/٣٠)

أخرج الحاكم وغيره عن أم هانئ بنت أبي طالب قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «
فَضَّلَ اللَّهُ قُرَيْشًا بِسَبْعِ خِصَالٍ
الحديث المتقدم ، وفيه :
نزلت فيهم سورة لم يذكر فيها أحد غيرهم : لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ.
التفسير والبيان :

لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ، إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ، فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ أَي فلتعبد قريش ربها ، شكروا
له ، لأجل إيلافهم (أي جعلهم يألفون ، ويسر لهم ذلك) رحلتين : رحلة إلى اليمن شتاء لجلب العطور
والبهارات الآتية من الهند والخليج ، وكونها في الشتاء لأنها بلاد حارة ، ورحلة إلى الشام في الصيف ،
لجلب الحبوب الزراعية ، وكونها في الصيف لأنها بلاد باردة ، وكانت قريش في مكة تعيش بالتجارة ،
ولولا هاتان الرحلتان لم يتمكنوا من المقام بها ، ولولا الأمن بجوار البيت ، لم يقدروا على التصرف ،
وكانوا لا يغار عليهم لأن العرب يقولون : قريش أهل بيت الله عز وجل. وكل هذا الاحترام والإجلال
لقريش أهل مكة من الله عز وجل الذي هيأه لهم بواسطة البيت الحرام ، فكان عليهم الإقرار بهذه
النعمة ، وإفراد الله بالعبادة والتعظيم.

وصريح محمد بن إسحاق وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أن هذه السورة متعلقة

ج ٣٠ ، ص : ٤١٦

بما قبلها لأن المعنى عندهما : حبسنا عن مكة الفيل ، وأهلكنا أهله لإيلاف قريش ، أي لائتلافهم
واجتماعهم في بلدهم آمنين.

وعلى كل حال فهاتان نعمتان : نعمة صد أصحاب الفيل ، ونعمة جوار البيت الحرام والائتلاف فيه ،
فإن لم يعبدوا الله لسائر نعمه ، فليعبدوه لهاتين النعمتين. وقد عرفهم سبحانه بأنه رب هذا البيت ،
بالرغم من أوثانهم التي يعبدونها حول الكعبة ، فميّز نفسه عنها ، وبالبيت تشرفوا على سائر العرب ،
وهم يدركون هذا ويقرون به. وكانت الإشارة إلى البيت في السورة لإفادة التعظيم.

(٤٠٢/٣٠)

قال الرازي رحمه الله عند قوله تعالى : لِيُعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ
: اعلم أن الإناعام على قسمين : أحدهما - دفع الضرر ، والثاني - جلب النفع ، والأول أهم وأقدم ،
ولذلك قالوا : دفع الضرر عن النفس واجب ، أما جلب النفع ، فإنه غير واجب ، فلهذا السبب بين
الله تعالى نعمة دفع الضرر في سورة الفيل ، ونعمة جلب النفع في هذه السورة ، ونظرا لهاتين النعمتين
العظيمتين أمرهم ربهم بعبادته والعبودية له وأداء الشكر على ذلك : لِيُعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ
« ١ » .

والعبادة : هي التذلل والخضوع للمعبود على غاية ما يكون ، وهي تحقق معنى العبودية.
ثم ذكر الله تعالى نعماً أخرى على قريش ، وصف بهما رب هذا البيت ، فقال :
- الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ أَي هُوَ رَبُّ الْبَيْتِ ، وهو الذي أطعمهم من جوع ووسع لهم في الرزق ويسر
لهم سبيله ، بسبب هاتين الرحلتين ، فخلصهم من جوع شديد كانوا فيه قبلهما.

(١) تفسير الرازي : ٣٢ / ١٠٧

ج ٣٠ ، ص : ٤١٧

- وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ أَي وَتَفَضَّلَ عَلَيْهِمُ بِالْأَمْنِ وَالِاسْتِقْرَارِ ، فليفردوه بالعبادة وحده لا شريك له ، ولا
يعبدوا من دونه صنما ولا ندا ولا وثنا ، قال ابن كثير : ولهذا من استجاب لهذا الأمر ، جمع الله له بين
أمن الدنيا وأمن الآخرة.

ومن عصاه سلبهما منه ، كما قال تعالى : ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً ، يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا
مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ، فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ . وَلَقَدْ جَاءَهُمْ
رَسُولٌ مِنْهُمْ ، فَكَذَّبُوهُ ، فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ [النحل ١٦ / ١١٢ - ١١٣] « ١ » .

(٤٠٣/٣٠)

وكانت العرب يغير بعضها على بعض ، ويسبي بعضها بعضا ، فأمنت قريش كما تقدم من ذلك لمكان
الحرم ، كما آمنهم من خوف الحبشة مع الفيل قال الله تعالى : أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا ،
وَيُنْتَخِطُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ؟

[العنكبوت ٢٩ / ٦٧].

فقه الحياة أو الأحكام :

أمر الله تعالى في هذه السورة قريشا وهم أولاد النضر بن كنانة بعبادة وتوحيد ربهم الذي أنعم عليهم
بهذه النعم الكثيرة ومنها :

١- إهلاك أصحاب الفيل وصددهم عن مكة ، كما أهلكوا أيضا لأجل كفرهم ، وفي هذا دفع لضرر عظيم مؤكد الحصول لولا عناية الله وحمايته ، وتوفير أيضا للأمن والسلامة والاطمئنان بجوار البيت الحرام.

٢- نعمة الرزق وتوفير الحاجة والكفاية بسبب ارتحالهم إلى اليمن شتاء وإلى الشام صيفا لجلب مختلف أنواع التجارات من الأطعمة والثياب ، مع أمنهم من إغارة العرب عليهم لأنهم أهل بيت الله وجبرانه.

(١) تفسير ابن كثير : ٥٥٣ / ٤

ج ٣٠ ، ص : ٤١٨

٣- نعمة الأمن من المخاوف ، سواء في داخل مكة حيث جعل الله لهم مكة بلدا آمنا ، ويتخطف الناس من حولهم ، أو في خارجها عند ما ينتقلون للتجارة والكسب. والكسب.

٤- نعمة وجود البيت الحرام أو الكعبة المشرفة محل التعظيم والتقديس من العرب ، وأساس مجدهم وعزهم ، فإنهم شرفوا بالبيت على سائر العرب ، فذكروهم الله بهذه النعمة. والخلاصة : إن نعم الله عليهم لا تحصى ، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه ، فليعبدوه لهذه النعمة الظاهرة وهي إيلافهم رحلتين.

روى ابن أبي حاتم عن أسماء بنت يزيد بن السكن أم سلمة الأنصارية ، قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ويل لكم قريش : لإيلاف قريش » .

و

(٤٠٤/٣٠)

روى عنها أيضا : قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لإيلاف قريش ، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ويحكم يا معشر قريش ، اعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمكم من جوع ، وآمنكم من خوف » .

واستدل الإمام مالك بالسورة على أن الزمان قسمان : شتاء وصيف ، ولم يجعل لهما ثالثا ، فالشتاء نصف السنة ، والصيف نصفها.

واستدل العلماء بهذا أيضا على جواز تصرف الرجل في الزمانين بين محلين ، يكون حالهما في كل زمان أنعم من الآخر ، كالجلوس في المجلس البحري في الصيف ، وفي القبلي في الشتاء ، وفي اتخاذ

أدوات التبريد صيفا ، ووسائل الدفء شتاء .
شتاء .

ج ٣٠ ، ص : ٤١٩

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الماعون

مكية ، وهي سبع آيات .

مكيتها أو مدنيتهما :

هذه السورة مكية في قول الجمهور ، مدنية في قول ابن عباس وقتادة ، وقال هبة الله المفسر الضريير :
نزل نصفها بمكة في العاصي بن وائل ، ونصفها بالمدينة في عبد الله بن أبي المنافق .
تسميتها :

سميت سورة الماعون ، لأن الله تعالى ذم في نهايتها المدنية الذين يمنعون الماعون : وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ
[٧] كالمساهين عن الصلاة ، والمنافقين .

والماعون : ما يستعيه الجار من جاره من أدوات الطبخ ، كالقدر والملح والماء ، وآلات الحراثة
والزرع ، كالفأس والدلو ، ووسائل الخياطة كالإبرة والخيط ونحو ذلك من كل ما يستعان وينتفع به من
المنافع السريعة . وتسمى أيضا سورة الدين للنعي في مطلعها المكّي على الذي يكذب بالدين ، أي
الجزاء الأخرى .
مناسبتها لما قبلها :

ترتبط السورة بما قبلها من وجوه ثلاثة :

١- ذم الله في السورة السابقة سورة قريش الجاحدين لنعمة الله

ج ٣٠ ، ص : ٤٢٠

الذين أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَذَمَّ فِي هَذِهِ السُّورَةِ مَنْ لَمْ يَحْضُرْ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ .

(٤٠٥/٣٠)

٢- أمر الله في السورة المتقدمة بعبادته وحده وتوحيده : لِيُعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ

و ذم في هذه السورة الذين هم عن صلاتهم ساهون ، وينهون عن الصلاة .

٣- عدّد الله تعالى في السورة الأولى نعمه على قريش ، وهم مع ذلك ينكرون البعث ، ويجحدون

الجزاء في الآخرة ، وأتبعه هنا بتهديدهم وتخويفهم من عذابه لإنكار الدين ، أي الجزاء الأخرى .

ما اشتملت عليه السورة :

تحدثت هذه السورة المكية في مطلعها عن الكافر ، وفي نهايتها المدنية عن المنافق .
 أما مطلعها فهو في ذم الكافر المكذب بيوم الحساب والجزاء : **أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ وَوَصَفْتَهُ**
بصفتين : الأولى - انتهاره وزجره وطرده اليتيم ، والثانية - عدم الحض أو الحث على إطعام المسكين ،
فلم يحسن في عبادة ربه ، ولم يفعل الخير لغيره .
 وأما خاتمتها فهي في ذم المنافق الذي أظهر الإسلام وأخفى الكفر ، ووصفته بصفات ثلاث : الأولى -
 الغفلة عن الصلاة ، والثانية - مراءاته الناس بعمله ، والثالثة - منعه الماعون الذي يستعان وينتفع به بين
 الجيران ، فهو لا يعمل لله ، بل يراني في عمله وصلاته .
 وتوعدت الفريقين بالخزي والعذاب والهلاك ، ولفتت الأنظار إليهم بأسلوب الاستهجان والاستغراب
 والتعجب من صنيعهم .

ج ٣٠ ، ص : ٤٢١

الكافر المنكر الجزاء الأخروي والمنافق المراني بعمله وعقاب كل منهما [سورة الماعون (١٠٧) :

الآيات ١ الى ٧]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ
لِلْمُصَلِّينَ (٤)

الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَأُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)
 الإعراب :

(٤٠٦/٣٠)

أَرَأَيْتَ بالهمزة على الأصل ، وهو في الأظهر عند ابن الأنباري من رؤية العين ، لا من رؤية القلب ،
 فيتعدى إلى مفعول واحد ، وليس في الآية إلا مفعول واحد . وقرئ رأيت بتخفيف الهمزة ، بجعلها بين
 الهمزة والألف لأن حركتها الفتح . وقرئ رأيت بحذف الهمزة الأولى للتخفيف ، كما حذف في المضارع
 ، نحو « يرى » . وقال أبو حيان : الظاهر أن أَرَأَيْتَ هنا هي التي بمعنى أخبرني ، فتعدى لاثنين ،
 أحدهما الَّذِي والآخر محذوف تقديره : أليس مستحقا عذاب الله ؟ أو : من هو ؟
 فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ، الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ فَوَيْلٌ مبتدأ : وَلِلْمُصَلِّينَ خبره . وَالَّذِينَ صفة الخبر ،
 وَهُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ صلته . ولم تحصل الفائدة بالخبر ، بل بما وقع صلة الصفة ، وهو قوله
 سَاهُونَ وهذا يسمى الخبر الموطئ : وهو أن معتمد الفائدة إنما كان بصفة الخبر ، لا بالخبر . مثل قوله
 تعالى : **بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ [النمل ٢٧ / ٥٥]** فإن قوله : **أَنْتُمْ** مبتدأ ، وَقَوْمٌ خبره ، ومعتمد الفائدة

على صفة الخبر ، لا عليه ، لأن قوله :

بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ لَمْ تَحْصَلْ بِهِ الْفَائِدَةَ ، للعلم بأنهم قوم ، وإنما حصلت الفائدة بقوله : تَجْهَلُونَ .
البلاغة :

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ اسْتِفْهَامٌ يَرَادُ بِهِ تَشْوِيقُ السَّمَاعِ إِلَى الْخَبَرِ وَالتَّعْجِيبُ مِنْهُ .
فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ إِيجَازًا بِالْحَذْفِ ، حَذْفٌ مِنْهُ الشَّرْطُ ، أَيِ إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَهُ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ
اليتيم .

ج ٣٠ ، ص : ٤٢٢

فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ذَمٌّ وَتَوْبِيخٌ ، وَوَضْعُ الظَّاهِرِ مَوْضِعَ الضَّمِيرِ ، وَالْأَصْلُ فَوَيْلٌ لَهُمْ زِيَادَةٌ فِي التَّقْبِيحِ لِأَنَّهُمْ
مَعَ التَّكْذِيبِ سَاهُونَ عَنِ الصَّلَاةِ .

وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ جَنَاسٌ نَاقِصٌ .

سَاهُونَ يُرَاؤُنَ الْمَاعُونَ : تَوَافَقَ الْفَوَاصِلُ مِرَاعَاةً لِرُؤُوسِ الْآيَاتِ ، وَكَذَلِكَ بِالذِّينِ الْمَسْكِينِ لِلْمُصَلِّينَ .
المفردات اللغوية :

(٤٠٧/٣٠)

أَرَأَيْتَ أَيُّ هَلْ عَرَفْتَ وَعَلِمْتَ ؟ وَهُوَ اسْتِفْهَامٌ مَعْنَاهُ التَّعْجِيبُ وَتَشْوِيقٌ السَّمَاعِ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا يَذْكَرُ بَعْدَهُ .
بِالذِّينِ بِالْجِزَاءِ وَالْحِسَابِ . وَالْمَعْنَى الْعَامُّ لِلذِّينِ : هُوَ النِّظَامُ الْإِلَهِيُّ لِلْحَيَاةِ الْمَشْتَمِلُ عَلَى الْخُضُوعِ لِمَا
وَرَاءَ الْمَحْسُوسِ بِآثَارِ الْكُونَ الدَّلَالَةِ عَلَى وَجُودِ اللَّهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ ، وَبَعْنَةُ الرِّسْلِ ، وَالتَّصْدِيقُ بِعَالَمِ الْآخِرَةِ .
يَدْعُ الْيَتِيمَ أَيِ يَدْفَعُهُ بَعْنَفٍ عَنِ حَقِّهِ ، وَيُزْجِرُهُ زَجْرًا عَنِيفًا ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَى نَارِ
جَهَنَّمَ دَعَاً [الطور ٥٢ / ١٣] .

وَلَا يَخْضُ لَا يَحِثُّ نَفْسَهُ وَأَهْلَهُ وَغَيْرَهُمْ مِنَ النَّاسِ . عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ إِطْعَامٌ .

فَوَيْلٌ خِزْيٌ وَعَذَابٌ وَهَلَاكٌ . سَاهُونَ غَافِلُونَ عَنِ الصَّلَاةِ ، يُؤَخَّرُونَهَا عَنْ وَقْتِهَا .

يُرَاؤُنَ فِي الصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا ، يَرُونَ النَّاسَ أَعْمَالَهُمْ لِيُرَوْهُمْ الشَّنَاءُ عَلَيْهَا ، وَالرِّيَاءُ : الْمَصَانَعَةُ وَفِعْلُ الشَّيْءِ
لِغَيْرِ وَجْهِ اللَّهِ ، إِرْضَاءٌ لِلنَّاسِ . وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ كُلُّ مَا يَسْتَعَانُ وَيَنْتَفِعُ بِهِ كَالْإِبْرَةِ وَالنَّفَاسِ وَالْقَدْرِ
وَالْقِصَّةِ .

سبب النزول :

نزول الآية (١) :

أَرَأَيْتَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : نَزَلَتْ فِي الْعَاصِ بْنِ وَائِلِ السَّهْمِيِّ وَقَالَ السَّدْيِيُّ : نَزَلَتْ فِي الْوَلِيدِ بْنِ الْمَغِيرَةِ .
وَقِيلَ : فِي أَبِي جَهْلٍ ، كَانَ وَصِيًّا لِيَتِيمٍ ، فَجَاءَهُ عَرِيَانًا يَسْأَلُهُ مِنْ مَالِ نَفْسِهِ ، فَدَفَعَهُ . وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ :

نزلت في أبي سفيان ، وكان ينحر في كل أسبوع جزورا ، فطلب منه يتيم شيئا ، فقرعه بعصاه فأنزل الله هذه السورة.

ج ٣٠ ، ص : ٤٢٣

نزول الآية (٤) :

فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ : أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ قال : نزلت في المنافقين كانوا يراءون المؤمنين بصلاتهم إذا حضروا ، ويتركونها إذا غابوا ، ويمنعونهم العارية ، أي الشيء المستعار.

التفسير والبيان :

(٤٠٨/٣٠)

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ أَي أَبْصَرْتَ يَا مُحَمَّدَ الَّذِي يَكْذِبُ بِالْحِسَابِ وَالْجِزَاءِ ؟ أَوِ بِالْمَعَادِ وَالْجِزَاءِ وَالثَّوَابِ . وَقَوْلُهُ : أَرَأَيْتَ وَإِنْ كَانَ فِي صُورَةٍ اسْتَفْهَامٌ ، لَكِنَّ الْغُرُضَ بِمَثَلِهِ الْمَبَالِغَةُ فِي التَّعْجِبِ . وَهَذَا مِثَالُ آخِرِ لُكُونِ الْإِنْسَانِ فِي خَسْرٍ .

فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ، وَلَا يَخْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ أَي هُوَ الَّذِي يَدْفَعُ الْيَتِيمَ عَنْ حَقِّهِ دَفْعًا شَدِيدًا ، وَيُزَجِرُهُ زَجْرًا عَنِيفًا ، وَيُظْلِمُهُ حَقَّهُ وَلَا يَحْسُنُ إِلَيْهِ ، وَقَدْ كَانَ عَرَبُ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يُوَرِّثُونَ النِّسَاءَ وَالصِّبْيَانَ . وَلَا يَحِثُّ نَفْسَهُ وَلَا أَهْلَهُ وَلَا غَيْرَهُمْ عَلَى إِطْعَامِ الْمَسْكِينِ الْمُحْتَاجِ ، بِخِلَافِ الْمَالِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ، وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ [الفجر ٨٩ / ١٧ - ١٨] أَي الْفَقِيرَ الَّذِي لَا يَمْلِكُ شَيْئًا ، أَوْ لَا يَجِدُ كِفَايَتَهُ .

فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ، الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ

أَي فَخْزِي وَعَذَابٌ لِلْمُنَافِقِينَ الَّذِي يُؤَدُّونَ الصَّلَاةَ أَحْيَانًا تَظَاهَرًا ، وَالَّذِينَ هُمْ غَافِلُونَ عَنْهَا ، غَيْرَ مُبَالِغِينَ بِهَا ، لَا يَرْجُونَ بِصَلَاتِهِمْ ثَوَابًا إِنْ صَلَّوْا ، وَلَا يَخَافُونَ عَلَيْهَا عِقَابًا إِنْ تَرَكَوْا ، فَهَمُ عَنْهَا غَافِلُونَ حَتَّى يَذْهَبَ وَقْتُهَا ، وَإِذَا كَانُوا مَعَ الْمُؤْمِنِينَ صَلَّوْا رِبَاءً ، وَإِذَا لَمْ يَكُونُوا مَعَهُمْ لَمْ يَصَلُّوْا .

وَلَمْ يَقُلْ : فِي صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ لِأَنَّ السَّهْوَ فِي أَثْنَاءِ الصَّلَاةِ مُغْتَفَرٌ مَعْفُو عَنْهُ لِأَنَّهُ غَيْرُ اخْتِيَارِيٍّ ، وَإِنَّمَا قَالَ : عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ بِتَأْخِيرِهَا عَنْ وَقْتِهَا رَأْسًا ، أَوْ فَعْلُهَا مَعَ قَلَّةِ مَبَالِغَةِهَا ، كَقَوْلِهِ : وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى ،

ج ٣٠ ، ص : ٤٢٤

يُرَاؤُنَ النَّاسَ

[النساء ٤ / ١٤٢]. ويجوز أن يطلق لفظ « المصلين » على تاركي الصلاة ، بناء على أنهم من جملة المكلفين بالصلاة.

(٤٠٩/٣٠)

الَّذِينَ هُمْ يُرَأُونَ أَي إن أولئك الساهين عن صلاتهم هم الذين يراءون الناس بصلاتهم إن صلوا ، أو يراءون الناس بكل ما عملوا من أعمال البر ، ليشنوا عليهم. قال الزمخشري : المراءاة : هي مفاعلة من الإراءة لأن المرائي يري الناس عمله ، وهم يرونه الشاء عليه ، والإعجاب به. روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو يقول : قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « من سَمِعَ الناس بعمله ، سَمِعَ اللهُ به سامع خلقه ، وحقَّره ، وصغَّره » .

وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ أَي يمنعون العارية وفعل الخير ، والماعون اسم لكل ما يتعاوره الناس بينهم ، من الدلو والفأس والقُدوم والقدر ومتاع البيت ، وما لا يمنع عادة ، كالماء والملح ، مما ينسب مانعة إلى الخسة ولؤم الطبع وسوء الخلق.

فهؤلاء المنافقون لا أحسنوا عبادة ربهم ، ولا أحسنوا إلى خلقه ، حتى ولا بإعارة ما ينتفع به ويستعان به ، مع بقاء عينه ، ورجوعه إليهم ، وهؤلاء لمنع الزكاة وأنواع القربات أولى وأولى.

روى النسائي وغيره عن عبد الله بن مسعود قال : كل معروف صدقة ، وكنا نعد الماعون على عهد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عارية الدلو والقدر.

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

١- ذم المكذب بالجزاء والحساب في الآخرة ، واللفظ عام لا يقتصر على من كان سبب نزول الآية.

ج ٣٠ ، ص : ٤٢٥

٢- من صفات المكذب بالجزاء الأخروي وقبائحه : زجر اليتيم وطرده ودفعه عن حقه وظلمه وقهره ، وترك الخير وعدم الحث أو عدم الأمر على إطعام الفقير والمسكين ، من أجل بخله وتكذيبه بالجزاء. وليس الذم عاما ، حتى يتناول من تركه عجزا ، ولكنهم كانوا يبخلون مع الغنى ، ويعتذرون لأنفسهم.

٣- الويل ، أي العذاب والتهديد العظيم لمن فعل ثلاثة أمور : أحدها- السهو عن الصلاة ، وثانيها- فعل المراءاة ، وثالثها- منع الماعون.

(٤١٠/٣٠)

و قد جمع المنافقون الأوصاف الثلاثة : ترك الصلاة ، والرياء ، والبخل بالمال .
والسهو عن الصلاة : تركها رأسا ، أو فعلها مع قلة المبالاة بها كما تقدم .
أما السهو في الصلاة فهو أمر غير اختياري ، فلا يدخل تحت التكليف . و
قد ثبت أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سها في الصلاة ، وشرع سجود السهو لمن سها .
وكذلك سها الصحابة .
وحقيقة الرياء : طلب ما في الدنيا بالعبادة ، وطلب المنزلة في قلوب الناس ، وللرياء أنواع ، وأولها :
تحسين السمّت (الهيئة) مع إرادة الجاه وثناء الناس . وثانيها : لبس الثياب القصار أو الخشنّة ، ليأخذ
بذلك هيبة الزهد في الدنيا . وثالثها : الرياء بالقول بإظهار السخط على أهل الدنيا ، وإظهار الوعظ
والتأسف على ما يفوته من فعل الخير والطاعة .
ورابعها : إظهار الصلاة والصدقة ، أو تحسين الصلاة لأجل رؤية الناس له « ١ » .

(١) أحكام القرآن لابن العربي : ٤ / ١٩٧٢ ، تفسير القرطبي : ٢٠ / ٢١٢ - ٢١٣

ج ٣٠ ، ص : ٤٢٦

و الفرق بين المنافق والمرائي : أن المنافق هو المظهر للإيمان المبطن للكفر ، والمرائي : المظهر ما
ليس في قلبه من زيادة خشوع ليعتقد فيه من يراه أنه متدين « ١ » .
وقال العلماء : لا بأس بالإراءة إذا كان الغرض الاقتداء ، أو نفي التهمة .
واجتناب الرياء صعب إلا على من راض نفسه ، وحملها على الإخلاص . ومن هنا
قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « الرياء أخفى من ديب النملة السوداء ، في الليلة المظلمة ،
على المسح الأسود » « ٢ »
أي البلاس المصنوع من الشعر .

(٤١١/٣٠)

و الماعون عند أكثر المفسرين : اسم جامع لما لا يمنع في العادة ، ويسأله الفقير والغني في أغلب
الأحوال ، ولا ينسب سائله إلى لؤم ، بل ينسب مانعة إلى اللؤم والبخل ، كالفأس والقدر والدّلّو
والمقدحة والغريال والقُدوم ، ويدخل فيه الماء والملح والنار ، لما روى ابن ماجه عن أبي هريرة : «
ثلاثة لا يمنعن : الماء والنار والملح » . ومن ذلك أن يلتمس جارك الخبز من تنورك ، أو أن يضع
متاعه عندك يوما أو نصف يوم « ٣ » . وقيل : منع الماعون : منع زكاة أموالهم .
وبالرغم من أن هذه الأوصاف واضحة في المنافقين ، فإن بعضها قد يوجد في المسلم الصادق الإسلام

، وحينئذ يلحقه جزء من التوبيخ ، كالصلاة إذا تركها ، ومنع الماعون إذا تعين ، ويكون منعاً قبيحاً مخالفاً بالمرءة في غير حال الضرورة.

٤- في الآيتين حول السهو عن الصلاة ومنع الماعون إشارة إلى أن الصلاة لله عز وجل ، والماعون للخلق أو للناس ، فمن ترك الصلاة لم يراع جانب تعظيم أمر الله ، ومن منع الماعون لم يراع جانب الشفقة على خلق الله ، وهذا كمال الشقاوة ، نعوذ بالله منها.

(١) تفسير الرازي : ٣٢ / ١١٥

(٢) تفسير الكشاف : ٣ / ٣٦٢

(٣) غرائب القرآن : ٣٠ / ١٩١

ج ٣٠ ، ص : ٤٢٧

و الخلاصة : وصف الله الكفار والمنافقين في هذه السورة بأربع صفات :
البخل ، وترك الصلاة ، والرياء فيها ، ومنع الزكاة والخير.

(٤١٢/٣٠)

ج ٣٠ ، ص : ٤٢٨

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الكوثر

مكية ، وهي ثلاث آيات.

مكيتها أو مدنيها :

هذه السورة مكية في المشهور وقول الجمهور ، وقال الحسن وعكرمة وقتادة : مدنية ، وهو رأي ابن كثير.

تسميتها :

سميت سورة الكوثر لافتتاحها بقول الله تعالى مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم : **إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ** أي الخير الكثير الدائم في الدنيا والآخرة ، ومنه : نهر الكوثر في الجنة.

مناسبتها لما قبلها :

وصف الله الكفار والمنافقين الذين يكذبون بالدين أي بالجزاء الأخروي بأربع صفات : البخل في قوله : **يَدْعُ الْيَتِيمَ ، وَلَا يَخْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ** وترك الصلاة في قوله : **الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ**. والرياء أو المراءاة في الصلاة في قوله : **الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُنَ** ومنع الخير والزكاة في قوله :

وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ.

وذكر الله تعالى في هذه السورة في مقابلة تلك الصفات الأربع صفات أربعاً للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فذكر أنه أعطاه الكوثر في مقابلة البخل في قوله : **إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ أَي الْخَيْرِ الْكَثِيرِ الدائم ، فأعط** أنت الكثير ولا تبخل ، وأمره بالمواظبة على الصلاة : **فَصَلِّ أَي دم على الصلاة في مقابلة ترك الصلاة** ، وأمره

ج ٣٠ ، ص : ٤٢٩

بالإخلاص في الصلاة في قوله : **فَصَلِّ لِرَبِّكَ أَي لرضا ربك ، لا لمراءاة الناس ، في مقابلة المراءاة في الصلاة ، وأمره بالتصدق بلحم الأضاحي على الفقراء ، في مقابلة منع الماعون « ١ » .** ما اشتملت عليه السورة :

تضمنت هذه السورة المكية الحديث عن مقاصد ثلاثة هي :

١- بيان فضل الله الكريم وامتنانه على نبيه الرحيم بإعطائه الخير الكثير في الدنيا والآخرة ، ومنه نهر الكوثر في الجنة.

٢- أمر النبي وكذا أمته بالمواظبة على الصلاة ، والإخلاص فيها ، ونحر الأضاحي شكراً لله تعالى.

٣- بشارة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنصره على أعدائه ، وبخزيهم وإذلالهم وحقارتهم ، بسبب انقطاعهم عن كل خير في الدنيا والآخرة.

فضلها :

(٤١٣/٣٠)

أخرج الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال : « أغفى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إغفاءة ، فرفع رأسه مبتسماً ، إما قال لهم وإما قالوا له : لم ضحكت ؟ فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إنه أنزلت علي آتفا سورة ، فقرأ : **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ حَتَّى خْتَمَهَا ، فقال :** أتدرون ما الكوثر ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : هو نهر أعطانيه ربي عز وجل في الجنة ، عليه خير كثير ، ترد عليه أمتي يوم القيامة ، آنيته عدد الكواكب ، يختلج العبد منهم ، فأقول : يا رب ، إنه من أمتي ، فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك » .

و

أخرج مسلم- واللفظ له- وأبو داود والنسائي عن أنس قال : « بينا

ج ٣٠ ، ص : ٤٣٠

رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين أظهرنا في المسجد ، إذ أغفى إغفاءة ، ثم رفع رأسه مبتسما ، قلنا : ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال : لقد أنزلت علي آفا سورة ، فقرأ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ، فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ، إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ثم قال : أتدرون ما الكوثر ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل ، عليه خير كثير ، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة ، آنيته عدد النجوم في السماء ، فيختلج « ١ » العبد منهم ، فأقول : رب إنه من أمتي ، فيقول : إنك لا تدري ما أحدث بعدك .

سبب نزول السورة :

أخرج البزار وغيره بسند صحيح عن ابن عباس قال : قدم كعب بن الأشرف مكة ، فقالت له قريش : أنت سيدهم ، ألا ترى هذا المنصير المنبت من قومه ، يزعم أنه خير منا ، ونحن أهل الحجيج ، وأهل السقاية ، وأهل السدانة! قال :

أنتم خير منه ، فنزلت : إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ.

و

(٤١٤/٣٠)

أخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن المنذر عن عكرمة قال : لما أوحى إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالت قريش : بتر محمد منا ، فنزلت : إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : كانت قريش تقول إذا مات ذكور الرجل : بتر فلان ، فلما مات ولد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قال العاصي بن وائل : بتر محمد ، فنزلت . وأخرج البيهقي في الدلائل مثله عن محمد بن علي ، وسمى الولد :

القاسم ، وأخرج عن مجاهد قال : نزلت في العاصي بن وائل ، وذلك أنه قال : أنا شاني محمد.

و

أخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير في قوله : فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ قالت : نزلت يوم الحديبية ، أتاه جبيل ، فقال : انحر واركع ، فقام ، وخطب

(١) أي ينتزع ويقتطع.

ج ٣٠ ، ص : ٤٣١

خطبة الفطر والنحر ، ثم ركع ركعتين ، ثم انصرف إلى البدن ، فنحرها.

لكن فيه غرابة شديدة كما قال السيوطي.

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : بلغني أن إبراهيم ولد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما مات ، قالت قريش : أصبح محمدا بترا ، فغاظه ذلك ، فنزلت : **إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ تَعْزِيَةً لَهُ .**
والخلاصة : كان سبب نزول هذه السورة هو استضعاف النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، واستصغار أتباعه ، والشماتة بموت أولاده الذكور ، ابنه القاسم بمكة ، وإبراهيم بالمدينة ، والفرح بوقوع شدة أو محنة بالمؤمنين ، فنزلت هذه السورة إعلاما بأن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوي منتصر ، وأتباعه هم الغالبون ، وأن موت أبناء الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يضعف من شأنه ، وأن مبغضيه هم المنقطعون الذين لن يبقى لهم ذكر وسمعة ، البعيدون عن كل خير.
المنح المعطاة للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [سورة الكوثر (١٠٨) : الآيات ١ الى ٣]
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤١٥/٣٠)

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣)

الإعراب :

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ إِنَّا أصله : إننا ، فحذفت إحدى النونات استثقالا لاجتماع الأمثال ، وذهب الأكثرون إلى أن المحذوفة هي الوسطى.

والكوثر : فوعل من الكثرة ، والواو فيه زائدة ، وهو نهر في الجنة ، وسمي كوثرًا لكثرة مائه ، ورجل كوثر : كثير العطايا والخير.

إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ هُوَ الْأَبْتَرُ هُوَ إما ضمير فصل لا موضع له من الإعراب ، **وَالْأَبْتَرُ** خبر إن ، أو مبتدأ ، **وَالْأَبْتَرُ** خبره ، والمبتدأ والخبر : خبر إن .

ج ٣٠ ، ص : ٤٣٢

البلاغة :

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ إِنَّا بصيغة الجمع الدالة على التعظيم. وفيه تصدير الجملة بحرف التأكيد الجاري مجرى القسم لأن أصلها : إن ونحن. وعبر بصيغة الماضي المفيدة للوقوع. **أَعْطَيْنَاكَ** ولم يقل : سنعطيك ، للدلالة على تحقق وقوع الوعد مبالغة ، كأنه حدث ووقع.

الْكَوْثَرَ : مبالغة.

فَصَلِّ لِرَبِّكَ الإضافة للتكريم والتشريف.

إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ إفادة الحصر.

الْكُوْثَرُ هُوَ الْأَبْتَرُ مَطَابِقَةٌ أَوْ طَبَاقٌ لِأَنَّ الْكُوْثَرَ الْخَيْرَ الْكَثِيرَ ، وَالْأَبْتَرُ الْمَنْقَطِعُ عَنْ كُلِّ خَيْرٍ .
المفردات اللغوية :

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ وَقَرِيءَ (أَنْطِينَاكَ) الْكُوْثَرَ الْمَفْرُطَ فِي كَثْرَةِ الْخَيْرِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ وَشَرَفِ الدَّارِينَ
بِالنَّبُوَّةِ وَالْقُرْآنِ وَالِدِينِ الْحَقِّ وَالشَّفَاعَةِ وَنَحْوَهَا ، وَمِنْهُ نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ كَمَا
رَوَى عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ وَمِنْ مَعَهُمَا فِي الْحَدِيثِ الْمَتَقَدِّمُ عَنْ أَنَسٍ
: « نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ ، وَعَدْنِيهِ رَبِّي ، فِيهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ ، أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ ، وَأَبْيَضُ مِنَ اللَّيْلِ ، وَأَبْرَدُ مِنَ
الثَّلْجِ ، وَأَلْيَنُ مِنَ الزَّبَدِ ، حَافَتَاهُ الزَّبْرَجْدُ ، وَأَوَانِيهِ مِنْ فِضَّةٍ ، لَا يَظْمَأُ مِنْ شَرْبِ مِنْهُ »
وقيل : حوض في الجنة.

(٤١٦/٣٠)

فَصَلِّ لِرَبِّكَ أَي دَاوِمٌ عَلَى الصَّلَاةِ ، خَالِصًا لَوَجْهِ اللَّهِ ، شُكْرًا لِإِنْعَامِهِ ، وَقِيلَ : الْمَرَادُ صَلَاةُ عِيدِ النَّحْرِ .
وَأَنْحَرَ النَّسْكَ أَوْ الْهَدْيَ أَوْ الْأَضْحِيَّةَ ، وَتَصَدَّقَ عَلَى الْمَحَاوِيحِ (الْمَحْتَاجِينَ) .
شَانِكَ مَبْغُضٌ . هُوَ الْأَبْتَرُ الْمَنْقَطِعُ عَنْ كُلِّ خَيْرٍ ، أَوْ الْمَنْقَطِعُ الْعَقْبُ ، أَي الَّذِي لَا عَقْبَ لَهُ ، إِذْ لَا
يَبْقَى لَهُ نَسْلٌ ، وَلَا حَسَنٌ ذَكَرَ ، وَأَمَّا أَنْتَ فَتَبْقَى ذُرِّيَّتَكَ وَحَسَنَ صَيْتِكَ وَأَثَارَ فَضْلِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ،
وَلَكَ فِي الْآخِرَةِ مَا لَا يُوصَفُ .
التفسير والبيان :

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوْثَرَ أَي مَنَحْنَاكَ الْخَيْرَ الْكَثِيرَ الْبَالِغَ فِي الْكَثْرَةِ إِلَى النِّهَايَةِ أَوْ الْغَايَةِ ، وَمِنْهُ نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ
، جَعَلَهُ اللَّهُ كِرَامَةً لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأُمَّتِهِ .
وهذا رد على الأعداء الذين استخفوا به واستقلوه ، ووصف مناقض لما عليه أهل الكفر والنفاق من
البخل.

ج ٣٠ ، ص : ٤٣٣

فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرَ أَي كَمَا أَعْطَيْنَاكَ الْخَيْرَ الْكَثِيرَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمِنْ ذَلِكَ نَهْرُ الْكُوْثَرِ ، فَدَاوِمٌ عَلَى
صَلَاتِكَ الْمَفْرُوضَةِ وَالنَّافِلَةِ ، وَأَدِّهَا خَالِصَةً لَوَجْهِ رَبِّكَ ، وَانْحَرِ ذَبِيحَتَكَ وَأَضْحِيَّتَكَ وَمَا هُوَ نَسْكَ لَكَ
وهو الهدى (شاة أو بعير مقدّم للحرم) وغير ذلك من الذبائح لله تعالى وعلى اسم الله وحده لا شريك
له ، فإنه هو الذي تعهدك بالتربية وأسبغ عليك نعمه دون سواه ، كما جاء في آية أخرى أمرا له : قُلْ :
إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ
[الأنعام ٦ / ١٦٢ - ١٦٣] .

وهذا على نقيض فعل المشركين الذين كانوا يصلون لغير الله ، وينحرون لغير الله ، فأمر نبيه صَلَّى اللَّهُ

عليه وسلّم أن تكون صلاته ونحره له ، وهو أيضا نقيض فعل المنافقين المرءين .
وقال قتادة وعطاء وعكرمة : المراد صلاة العيد ، ونحر الأضحية .
قال ابن كثير : الصحيح أن المراد بالنحر ذبح المناسك ، ولهذا

(٤١٧/٣٠)

جاء ففي حديث البراء بن عازب عند البخاري ومسلم : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلّم يصلي العيد ، ثم ينحر نسكه ، ويقول : من صلى صلاتنا ، ونسك ونسكنا ، فقد أصاب النسك ، ومن نسك قبل الصلاة فلا نسك له » فقام أبو بردة بن نيار ، فقال :
يا رسول الله ، إني نسكت شاتي قبل الصلاة ، وعرفت أن اليوم يوم يشتهي فيه اللحم قال : شاتك شاة لحم ، قال : فإن عندي عناقا هي أحب إلي من شاتين ، أفتجزئ عني ؟ قال : تجزئك ولا تجزئ أحدا بعدك » .

وقال ابن جرير في تفسير الآية : والصواب قول من قال : إن معنى ذلك :
فاجعل صلاتك كلها لربك ، خالصا دون ما سواه ، من الأنداد والآلهة ، وكذلك نحره ، اجعله له دون الأوثان ، شكرا له على ما أعطاك من الكرامة والخير الذي لا كفاء له ، وخصك به .

ج ٣٠ ، ص : ٤٣٤

إِنَّ شَانِيكَ هُوَ الْأَبْتَرُ أَي إِنْ مَبْغُضَكَ يَا مُحَمَّد ، وَمَبْغُضٌ مَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْحَقِّ وَالْبِرْهَانِ السَّاطِعِ وَالنُّورِ الْمَبِينِ هُوَ الْأَبْتَرُ الْأَقْلُ الْأَذْلُ الْمَنْقَطِعُ عَنْ خَيْرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَالَّذِي لَا يَبْقَى ذِكْرُهُ بَعْدَ مَوْتِهِ .
وهذا رد على ما قال بعض المشركين وهو العاص بن وائل عن النبي صلى الله عليه وسلّم لما مات ابنه عبد الله من خديجة : إنه أبت ، وهذا قول ابن عباس ومقاتل والكلبي وعامة أهل التفسير .

والأبت من الرجال : الذي لا ولد له . وعن ابن عباس : نزلت في أبي جهل .

وهذا يعم جميع من اتصف بعداوة النبي صلى الله عليه وسلّم ممن ذكر في سبب النزول وغيرهم .
قال الحسن البصري رحمه الله : عنى المشركون بكونه أبت : أنه ينقطع عن المقصود قبل بلوغه ، والله يبين أن خصمه هو الذي يكون كذلك .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت السورة على ما يأتي :

(٤١٨/٣٠)

١- أعطى الله عز وجل نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم مناقب كثيرة ، وخيرا كثيرا عظيما بالغا حد النهاية ، ومنه نهر في الجنة ، كما روى البخاري ومسلم وأحمد والترمذي عن أنس .

و

روى الترمذي أيضا عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الكوثر نهر في الجنة ، حافته من ذهب ، ومجره على الدر والياقوت ، تربته أطيب من المسك . وماؤه أحلى من العسل ، وأبيض من الثلج »

وقال : هذا حديث حسن صحيح .

وقيل : إنه حوض النبي صلى الله عليه وسلم في الموقف ، كما جاء في حديث مسلم المتقدم عن أنس .

وهذان القولان هما أصح الأقوال ، فيكون الكوثر شاملا نهرا في الجنة ، وحوضا ترد عليه أمة النبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة .

ج ٣٠ ، ص : ٤٣٥

٢- أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم وأمته بأداء الصلوات المفروضة والنوافل خالصة لوجه الله تعالى ، دون مشاركة أحد سواه ، وأمرهم أيضا بذبح المناسك مما يهدى إلى الحرم والأضاحي وجميع الذبائح لله تعالى ، وعلى اسم الله وحده لا شريك له .

٣- إن مبغضي النبي صلى الله عليه وسلم وما جاء به من شرع ربه هم المنقطعون عن خيري الدنيا والآخرة ، والذين لا يبقى لهم ذكر مسموع بعد موتهم لأنهم لم يؤمنوا برسالة الحق ، ولم يعملوا من أجل الحق والخير المحض لله سبحانه وتعالى .

هذا .. وقد ذكر الرازي رحمه الله أن هذه السورة كالتممة لما قبلها من السور ، وكالأصل لما بعدها من السور ، وأورد ما شرف الله به نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم وأمته من الفضائل والمزايا والمناقب في سورة الأضحى والانشراح والتين والعلق والقدر والبينة والزلال والعاديات والقارعة والتكاثر والعصر والهمزة والفيل وقريش ، ثم الكوثر ، فليرجع إليه ، فإنه كلام رائع « ١ » .

و

(٤١٩/٣٠)

روي عن علي رضي الله عنه فيما خرّجه الدارقطني في قوله تعالى : فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ قال : وضع اليمين على الشمال في الصلاة .

وقد اختلف المالكية في هذه الهيئة ، والصحيح كما قال القرطبي أن المصلي يفعل ذلك في الفريضة

والنافلة لأنه

ثبت أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وضع يده اليمنى على اليسرى ، من حديث وائل بن حجر وغيره.

و به قال مالك وأحمد وإسحاق والشافعي وأصحاب الرأي. واستحب جماعة إرسال اليد « ٢ » .
والموضع الذي توضع عليه اليد مختلف فيه ،
فروي عن علي بن أبي طالب أنه وضعهما على الصدر.
وقال سعيد بن جبير وأحمد بن حنبل : فوق السرة ، وقال : لا بأس إن كانت تحت السرة.

(١) تفسير الرازي : ٣٢ / ١١٨ - ١١٩ [.....]

(٢) تفسير القرطبي : ٢٠ / ٢٢٠ وما بعدها.

ج ٣٠ ، ص : ٤٣٦

و أما رفع اليدين في التكبير عند الافتتاح والركوع والرفع من الركوع والسجود فمختلف فيه أيضا.
والصواب ما

في الصحيحين من حديث ابن عمر ، قال : « رأيت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا قام إلى الصلاة رفع يديه ، حتى تكونا حذو منكبيه ، ثم يكبر ، وكان يفعل ذلك حين يكبر للركوع ، ويفعل ذلك حين يرفع رأسه من الركوع ، ويقول : سمع الله لمن حمده ، ولا يفعل ذلك حين يرفع رأسه من السجود » .

قال ابن المنذر : وهذا قول الليث بن سعد ، والشافعي وأحمد وإسحاق وأبي ثور ، وحكى ابن وهب عن مالك هذا القول ، وبه أقول لأنه الثابت عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وقالت طائفة : يرفع المصلي يديه حين يفتح الصلاة ، ولا يرفع فيما سوى ذلك. هذا قول سفيان الثوري وأصحاب الرأي « ١ » .

(١) المرجع والمكان السابق.

(٤٢٠/٣٠)

ج ٣٠ ، ص : ٤٣٧

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الكافرون

مكيّة ، وهي ست آيات .

تسميتها :

سميت سورة الكافرون لأن الله تعالى أمر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بأن يخاطب الكافرين بأنه لا يعبد ما يعبدون من الأصنام والأوثان : قُلْ : يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ، لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ . وتسمى أيضا سورة المنابذة ، وسورة الإخلاص ، والمقشقة .

مناسبتها لما قبلها :

أمر الله نبيه في السورة السابقة بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له ، وفي هذه السورة سورة التوحيد والبراءة من الشرك تصريح باستقلال عبادته عن عبادة الكفار ، فهو لا يعبد إلا ربه ، ولا يعبد ما يعبدون من الأوثان والأصنام ، وبالغ في ذلك فكره وأكده ، وانتهى إلى أن له دينه ، ولهم دينهم . ما اشتملت عليه السورة :

هذه السورة المكية - سورة البراءة من عمل المشركين والإخلاص في العمل لله تعالى ، وضعت الحد الفاصل النهائي بين الإيمان والكفر ، وبين أهل الإيمان وعبدة الأوثان ، فحينما طلب المشركون المهادنة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن يعبد آلهتهم سنة ، ويعبدوا إلهه سنة ، نزلت السورة تقطع أطماع الكفار الرخيصة ، وتفصل النزاع بين فريقَي المؤمنين والكافرين إلى الأبد .

ج ٣٠ ، ص : ٤٣٨

فضلها :

ثبت في صحيح مسلم عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ بهذه السورة وب قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ في ركعتي الطواف .

و

في صحيح مسلم أيضا من حديث أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ بهما في ركعتي الفجر .

وروي هذا أيضا عند أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه عن ابن عمر ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن .

وقدم تقدم في سورة الزلزال في حديث ابن عباس عند الترمذي أنها تعدل ربع القرآن ، وإذا زلزلت تعدل ربع القرآن .

و

روى أبو القاسم الطبراني عن جبلة بن حارثة- وهو أخو زيد بن حارثة- : أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : « إذا أويت إلى فراشك فاقرأ : قُلْ : يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ، حتى تمر بآخرها ، فإنها براءة من الشرك » . وروى الإمام أحمد مثل ذلك عن الحارث بن جبلة.

والخلاصة :

ثبت أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قرأ بهذه السورة ، وب قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ في ركعتي الطواف ، وفي ركعتي الفجر ، والركعتين بعد المغرب ، ويوتر بسبح ، وقُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ، وقُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ . سبب نزولها :

أخرج الطبراني وابن أبي حاتم عن ابن عباس : « أن قريشا دعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أن يعطوه مالا ، فيكون أغنى رجل بمكة ، ويزوجوه ما أراد من النساء ، فقالوا : هذا لك يا محمد ، وتكف عن شتم آلهتنا ، ولا تذكرها بسوء ، فإن لم تفعل فاعبد آلهتنا سنة ، قال : حتى أنظر ما يأتي من ربي ، فأنزل الله :

قُلْ : يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ ، وَأَنْزَلَ : قُلْ : أَفَغَيَّرَ اللهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ [الزمر ٦٤ / ٣٩] . »

ج ٣٠ ، ص : ٤٣٩

و

أخرج عبد الرزاق عن وهب قال : قالت كفار قريش للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إن سرك أن تتبعنا عاما ، ونرجع إلى دينك عاما ، فأنزل الله : قُلْ : يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ .

و

أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن ميناء قال : لقي الوليد بن المغيرة ، والعاصي بن وائل ، والأسود بن المطلب ، وأممية بن خلف رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فقالوا : يا محمد ، هلّم فلنعبد ما نعبد ، ونعبد ما تعبد ، ولنشترك نحن وأنت في أمرنا كله ، فأنزل الله : قُلْ : يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ .

ويؤيد هذا

ما ذكره النيسابوري : أنها نزلت في رهط من قريش ، قالوا :

(٤٢٢/٣٠)

يا محمد ، هلّم ، اتبع ديننا وتتبع دينك ، تعبد آلهتنا سنة ، ونعبد إلهك سنة ، فإن كان الذي جئت به خيرا مما في أيدينا قد شركناك فيه ، وأخذنا بحظنا منه ، وإن كان الذي بأيدينا خيرا مما في يدك ، قد شركت في أمرنا ، وأخذت بحظك ، فقال : معاذ الله أن أشرك به غيره ، فأنزل الله تعالى : قُلْ : يَا أَيُّهَا

الْكَافِرُونَ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ ، فَعَدَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَفِيهِ الْمَلَأَ مِنْ قَرِيشٍ ، فَقَرَأَهَا عَلَيْهِمْ حَتَّى فَرَّغَ مِنَ السُّورَةِ ، فَأَيَسُوا مِنْهُ عِنْدَ ذَلِكَ « ١ » .
و

ذَكَرَ ابْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : أَنَّ سَبَبَ نَزُولِهَا « أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمَغِيرَةَ ، وَالْعَاصِمَ بْنَ وَائِلٍ ، وَالْأَسْوَدَ بْنَ عَبْدِ الْمَطْلَبِ ، وَأُمِيَّةَ بْنَ خَلْفٍ لَقُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالُوا : يَا مُحَمَّدُ ، هَلُمَّ فَلْنَعْبُدَ مَا تَعْبُدُ ، وَتَعْبُدُ مَا نَعْبُدُ ، وَنَشْتَرِكُ نَحْنُ وَأَنْتَ فِي أَمْرِنَا كُلِّهِ فَإِنْ كَانَ الَّذِي جِئْتَ بِهِ خَيْرًا مِمَّا بَأْيَدِنَا ، كُنَّا قَدْ شَارَكْنَاكَ فِيهِ ، وَأَخَذْنَا بِحِظْنَا مِنْهُ . وَإِنْ كَانَ الَّذِي بَأْيَدِنَا خَيْرًا مِمَّا بِيَدِكَ ، كُنْتَ قَدْ شَرَكْنَا فِي أَمْرِنَا ، وَأَخَذْتَ بِحِظِّكَ مِنْهُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ : قُلْ : يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ « ٢ » » .

(١) أسباب النزول للنيسابوري الواحدي : ص ٢٦١

(٢) تفسير القرطبي : ٢٠ / ٢٢٥

ج ٣٠ ، ص : ٤٤٠

سورة البراءة من الشرك والكفر وأعمال المشركين [سورة الكافرون (١٠٩) : الآيات ١ الى ٦]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤)

وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)

الإعراب :

(٤٢٣/٣٠)

لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ مَا بِمَعْنَى الَّذِي فِي مَوْضِعِ نَصْبِ بِ أَعْبُدُ وَتَعْبُدُونَ صِلَةٌ (الذي) والعائد محذوف ، تقديره : ما تعبدونه . ويجوز أن تكون ما مصدرية ، فلا تفتقر إلى عائد .
وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ قَالَ : مَا أَعْبُدُ وَلَمْ يَقُلْ (من) لمطابقة ما قبله وما بعده .
وقيل : ما بمعنى (من) .

وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ مَا فِي الْوَضْعَيْنِ فِي مَوْضِعِ نَصْبِ لِأَنَّهَا مَفْعُولٌ مَا قَبْلَهَا ، وَهِيَ إِمَّا مَوْصُولَةٌ أَوْ مَصْدَرِيَّةٌ مِثْلُ مَا الْأُولَى .
البلاغة :

يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ خطاب بالوصف للتوبيخ والتشنيع .

لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ طباق السلب ، فالأول نفي والثاني إثبات.
لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ ولا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ مقابلة بين الجملتين في الاستقبال.
ولا أنا عابِدٌ ما عَبَدْتُمْ ولا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ مقابلة بين الجملتين في الحال أو الماضي.
وفي هذه المقابلة نفي لعبادة الأصنام في الحال والاستقبال.
يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ ، لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ توافق الفواصل في الحرف الأخير.
المفردات اللغوية :

يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ يعني كفرًا مخصوصين قد علم الله منهم أنهم لا يؤمنون ، وهم زعماء الشرك في مكة.
لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ أي في المستقبل ، فإن لا لا تدخل إلا على مضارع
ج ٣٠ ، ص : ٤٤١

بمعنى الاستقبال ، كما أن ما لا تدخل إلا على مضارع بمعنى الحال ، أي لا أعبد في المستقبل ما
تعبدون من الأصنام في الحال.
ولا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ أي ولا تعبدون في المستقبل ما أعبد في الحال ، وهو الله تعالى وحده. ولا أنا
عابِدٌ ما عَبَدْتُمْ أي ولست أنا عابد في الحال أو في الماضي ما عبدتم فيما سلف.

(٤٢٤/٣٠)

وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ أي وما عبدتم في وقت ما أنا عابده ، ويجوز أن تكون الجملتان تأكيدين
على طريقة أبلغ. والأدق أن يقال : إن الآيتين (٢) ، (٣) تدلان على الاختلاف في المعبود الذي يعبد ،
فالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعبد الله ، وهم يعبدون الأصنام والأوثان. والآيتان (٤) ، (٥) تدلان على
الاختلاف في العبادة نفسها ، فعبادة النبي عليه الصلاة والسلام عبادة خالصة لله لا يشوبها شرك ولا
غفلة عن المعبود ، وعبادتهم كلها شرك وإشراك ، فلا يلتقيان.
لَكُمْ دِينُكُمْ وهو الشرك الذي أنتم عليه. وَلِي دِينٍ وهو التوحيد أو الإسلام الذي أنا عليه ، لا أرفضه ،
قال البيضاوي : فليس فيه إذن في الكفر ، ولا منع عن الجهاد ، ليكون منسوخا بآية القتال. وقال
الزمخشري : والمعنى أنني نبي مبعوث إليكم لأدعوكم إلى الحق والنجاة ، فإذا لم تقبلوا مني ، ولم
تتبعوني فدعوني كفافا ، ولا تدعوني إلى الشرك.

التفسير والبيان :

هذه سورة البراءة من عمل المشركين ، وهي آمرة بالإخلاص في العبادة ، فقال تعالى :
قُلْ : يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ ، لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ أي قل أيها النبي لكفار قريش : يا أيها الكافرون ، لا أعبد
على الإطلاق ما تعبدون من الأصنام والأوثان ، فلست أعبد آلهتكم بأية حال. والآية تشمل كل كافر

على وجه الأرض. وفائدة كلمة قُلْ : أنه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان مأمورا بالرفق واللين في جميع الأمور ، ومخاطبة الناس بالوجه الأحسن ، فلما كان الخطاب هنا غليظا أراد اللهُ رفع الحرج عنه وبيان أنه مأمور بهذا الكلام ، لا أنه ذكره من عند نفسه.

وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ أَي وَلستُم أنتم ما دمتُم على شرككم وكفركم عابدين اللهُ الذي أعبد ، فهو اللهُ وحده لا شريك له.

ج ٣٠ ، ص : ٤٤٢

(٤٢٥/٣٠)

و هاتان الآيتان (٢ ، ٣) تدلان على الاختلاف في المعبود ، فالنبي صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم يعبد اللهُ وحده ، وهم يعبدون الأصنام والأوثان أو الأنداد والشفعاء ، أو أن المعنى دفعا للتكرار كما ذكر الزمخشري : لا أعبد في المستقبل ما تعبدون في الحال ، وعلامته لا التي هي للاستقبال ، بدليل أن (لن) للاستقبال على سبيل التوكيد أو التأييد ، وأصله في رأي الخليل : لا أن. وما : للحال « ١ » ، وخلاصة المعنى : لا أفعل في المستقبل ما تطلبونه مني من عبادة آلهتكم ، ولا أنتم فاعلون في المستقبل ما أطلب منكم من عبادة إلهي. وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ أَي وَلَا أعبد عبادتكم ، أي لا أسلكها ولا أقتدي بها ، وإنما أعبد اللهُ على الوجه الذي يحبه ويرضاه ، وأنتم لا تقتدون بأوامر اللهُ وشرعه في عبادته ، بل قد اخترعتم شيئا من تلقاء أنفسكم ، فعبادة الرسول صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأتباعه خالصة لله لا شرك فيها ولا غفلة عن المعبود ، وهم يعبدون اللهُ بما شرعه ، ولهذا كانت كلمة الإسلام : « لا إله إلا اللهُ ، محمد رسول اللهُ » أي لا معبود إلا اللهُ ، ولا طريق إليه في العبادة إلا بما جاء به الرسول صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

والمشركون يعبدون غير اللهُ عبادة لم يأذن اللهُ بها ، فكلها شرك وإشراك ، ووسائلها من صنع الهوى والشيطان.

فالآيتان (٤ ، ٥) تدلان على الاختلاف في العبادة نفسها. ويرى بعضهم كالزمخشري : وما كنت قط في الحال أو في الماضي عابدا ما عبدتم ، يعني لم تعهد مني عبادة صنم في الجاهلية ، فكيف ترجى مني في الإسلام ؟ ! وما عبدتم في وقت ما أنا على عبادته.

وقيل : في الآيات تكرر ، والغرض التأكيد ، لقطع أطماع الكفار عن أن يجيبهم رسول اللهُ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى ما سألوه من عبادته آلهتهم.

)

(١) قد فهم بعضهم خطأ ما أراده الزمخشري هنا وفي الآيتين بعدهما. فقلب الوضع ، وجعل الاستقبال محل الحال وبالعكس.

ج ٣٠ ، ص : ٤٤٣

لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ أَي لَكُمْ شِرْكُكُمْ أَوْ كُفْرُكُمْ ، وَلِيَ دِينِي وَهُوَ التَّوْحِيدُ وَالْإِخْلَاصُ أَوْ الْإِسْلَامُ ، فِدِينِكُمُ الَّذِي هُوَ الْإِشْرَاقُ ، لَكُمْ لَا يَتَجَاوَزُكُمْ إِلَيَّ ، وَدِينِي الَّذِي هُوَ التَّوْحِيدُ مَقْصُورٌ عَلَيَّ لَا يَتَجَاوَزُنِي ، فَيَحْصُلُ لَكُمْ. وَقِيلَ : الدِّينُ :

الجزء ، والمضاف محذوف ، أي لكم جزاء دينكم ، ولي جزاء ديني. وقيل :
الدِّينُ : العِبَادَةُ.

وليست السورة منسوخة بآية القتال ، والمحققون على أنه لا نسخ ، بل المراد التهديد ، كقوله تعالى :
اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ [فصلت ٤١ / ٤٠].

ونظير هذه الآية قوله تعالى : وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ : لِي عَمَلِي ، وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ، أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ ،
وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ [يونس ١٠ / ٤١] وقوله :

لَنَا أَعْمَالُنَا ، وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ [القصص ٢٨ / ٥٥]. والمراد بذلك كله التهديد ، لا الرضا بدين الآخرين.
وقد استدلل الإمام أبو عبد الله الشافعي وغيره بهذه الآية الكريمة : لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ عَلَى أَنَّ الْكُفْرَ
كله ملة واحدة ، فورث اليهود من النصارى وبالعكس إذا كان بينهما نسب أو سبب يتوارث به لأن
الأديان ما عدا الإسلام كلها كالشيء الواحد في البطلان.

وذهب أحمد بن حنبل ومن وافقه إلى عدم توريث النصارى من اليهود وبالعكس ،
لحديث أحمد وأبي داود وابن ماجه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صَلَّى
الله عليه وسلّم : « لا يتوارث أهل ملتين شتى » .

قال الرازي : جرت عادة الناس بأن يتمثلوا بهذه الآية لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ عِنْدَ الْمِتَارِكَةِ ، وَذَلِكَ غَيْرُ
جَائِزٍ لِأَنَّهُ تَعَالَى مَا أَنْزَلَ الْقُرْآنَ لِيَتِمَثَلَ بِهِ ، بَلْ لِيَتَدَبَّرَ فِيهِ ، ثُمَّ يَعْمَلُ بِمُوجِبِهِ « ١ » .

)

(١) تفسير الرازي : ٣٢ / ١٤٨

ج ٣٠ ، ص : ٤٤٤

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت السورة على اختلاف المعبود واختلاف العبادة بين المسلمين وغيرهم ، وعلى أن الكفر ملة واحدة في مواجهة الإسلام ، وهذه العوامل الثلاثة تدل على أنه لاقاء بين الكفر والإيمان ، ولا بين أصحاب العداوة الدينية الحاقدة المتأصلة في النفس مع الإسلام وأهله.

أما اختلاف المعبود بين النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأتباعه المؤمنين وبين الكفار : فهو أن الفريق الأول يعبد الله وحده لا شريك له ، والفريق الثاني يعبد غير الله من الأصنام والأوثان والأنداد والشفعاء من البشر أو الملائكة أو الكوكب أو غير ذلك من أباطيل الملل والنحل.

وأما اختلاف العبادة فالمؤمنون يعبدون الله بإخلاص لا شرك فيه ولا غفلة عن المعبود ، وبما شرع الله لعباده من كيفية العبادة المرضية له ، وأما الكفار والمشركون فيعبدون معبوداتهم بكيفيات فيها الشرك والإشراك وبنحو اخترعوه لأنفسهم ، لا يرضى عنه ربهم.

وأما الكفر فكله ملة واحدة في مواجهة الإسلام لأن الدين الحق المقبول عند الله هو الإسلام وهو الإخلاص لله والتوحيد. وأما أنواع الكفر المعارضة لمبدأ التوحيد فتشترك في صلب الاعتقاد المنحرف عن أصل التوحيد.

ج ٣٠ ، ص : ٤٤٥

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النصر

مدنيّة ، وهي ثلاث آيات.

تسميتها :

سميت سورة النصر لافتتاحها بقول الله تبارك وتعالى : إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ أَي الْفَتْحِ الْأَكْبَرِ وَالنَّصْرِ الْمَوْزَرِ الَّذِي سُمِّيَ فَتْحَ الْفَتْوحِ وَهُوَ فَتْحُ مَكَّةِ الْمَكْرَمَةِ. وتسمى أيضا سورة التوديع.

مناسبتها لما قبلها :

(٤٢٨/٣٠)

لما أخبر الله تعالى في آخر السورة المتقدمة باختلاف دين الإسلام الذي يدعو إليه الرسول عن دين الكفار ، أنبأ هنا بأن دينهم سيضمحل ويزول ، ودينه سيعلو وينتصر وقت مجيء الفتح والنصر ، حيث يصبح دين الأكثرين. وفي ذلك بيان فضل الله تعالى على نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالنصر والفتح ،

وانتشار الإسلام ، وإقبال الناس أفواجا إلى دينه : دين الله ، كما أن فيه إشارة إلى دنو أجله صَلَّى اللهُ عليه وسلّم.

ما اشتملت عليه السورة :

هذه السورة المدنية بالإجماع تشير إلى فتح مكة ، وانتصار النبي صَلَّى اللهُ عليه وسلّم على المشركين ، وانتشار الإسلام في أرجاء الجزيرة العربية ، وانحسار ظلمة الشرك والوثنية ، والإخبار بدنو أجل النبي صَلَّى اللهُ عليه وسلّم ، وأمره بتسبيح ربه وحمده واستغفاره.

ج ٣٠ ، ص : ٤٤٦

فضلها :

تقدم في تفسير سورة الزلزال أنها في حديث الترمذي عن أنس بن مالك تعدل ربع القرآن ، وإذا زُلزِلت تعدل ربع القرآن.

وأخرج النسائي عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال : قال لي ابن عباس : يا ابن عتبة ، أتعلم آخر سورة من القرآن نزلت ؟ قلت : نعم : إذا جاء نصرُ اللهِ وَالْفَتْحُ قال : صدقت.

وروى الحافظان أبو بكر البزار والبيهقي عن ابن عمر قال : أنزلت هذه السورة : إذا جاء نصرُ اللهِ وَالْفَتْحُ على رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وسلّم أوسط أيام التشريق ، فعرف أنه الوداع ، فأمر براحلته القصواء فرحلت ، ثم قام ، فخطب الناس ، فذكر خطبته المشهورة ، أي خطبة حجة الوداع. سبب نزولها :

(٤٢٩/٣٠)

أخرج البخاري وغيره عن ابن عباس قال : « كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يدخلني مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وجد في نفسه ، فدعاهم ذات يوم ، فأدخله معهم. قال ابن عباس : فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليربهم ، فقال : ما تقولون في قول الله عز وجل : إذا جاء نصرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ؟ فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم ، فلم يقل شيئا ، فقال لي : أكذاك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت : لا. فقال : ما تقول ؟ فقلت : هو أجل رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وسلّم أعلمه الله له ، قال : إذا جاء نصرُ اللهِ وَالْفَتْحُ فذلك علامة أجلك ، فسبح بحمد ربك ، واستغفره ، إنه كان توابا فقال عمر : لا أعلم منها إلا ما تقول . »

ج ٣٠ ، ص : ٤٤٧

وقت نزول هذه السورة :

هناك قولان في ذلك :

أحدهما- أن فتح مكة كان سنة ثمان في رمضان ، ونزلت هذه السورة سنة عشر ، وروي أنه عاش بعد نزول هذه السورة سبعين يوماً ، وتوفي في ربيع الأول سنة عشر ، ولذلك سميت سورة التوديع .
والقول الثاني- أن هذه السورة نزلت قبل فتح مكة ، وهو وعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينصره على أهل مكة ، وأن يفتحها عليه ، ونظيره قوله تعالى :
إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ [القصص ٢٨ / ٨٥] . وقوله :
إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ يَفْتَحِ الْأَسْقَابَ ، إِذْ لَا يَقَالُ فِيمَا وَقَعَ : إِذَا جَاءَ وَإِذَا وَقَعَ .
وعلى هذا القول يكون الإخبار بفتح مكة قبل وقوعه إخباراً بالغيب معجزاً ، فهو من أعلام النبوة « ١ »

(٤٣٠/٣٠)

و الظاهر القول الأول ، بدليل ما قال ابن عمر : نزلت هذه السورة بمنى في حجة الوداع ، ثم نزلت اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي [المائدة : ٥ / ٣] فعاش بعدهما النبي صلى الله عليه وسلم ثمانين يوماً . ثم نزلت آية الكلاله (آخر سورة النساء) ، فعاش بعدها خمسين يوماً . ثم نزل لقد جاءكم رسول من أنفسكم [التوبة ٩ / ١٢٨] فعاش بعدها خمسة وثلاثين يوماً . ثم نزل : واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله [البقرة ٢ / ٢٨١] فعاش بعدها أحدًا وعشرين يوماً .
وقال مقاتل : سبعة أيام « ٢ » .
لكن قال الرازي : الأصح هو أن السورة نزلت قبل فتح مكة « ٣ » .

(١) تفسير الرازي : ٣٢ / ١٥٥

(٢) تفسير القرطبي : ٢٠ / ٢٣٣

(٣) تفسير الرازي : ٣٢ / ١٦٤

ج ٣٠ ، ص : ٤٤٨

فتح مكة [سورة النصر (١١٠) : الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ

وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣)

الإعراب :

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ تَقْدِيرُهُ : إِذَا جَاءَكَ نَصْرُ اللَّهِ ، فَحَذَفِ الْكَافَ الَّتِي هِيَ الْمَفْعُولُ .
وجواب إذا إما قوله تعالى : فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ .. والفاء غير مانعة من هذا على ما عليه الجمهور ، أو
محذوف تقديره : إذا جاءك نصر الله والفتح ، جاء أجلك ، وهو العامل في إذا .
وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا يَدْخُلُونَ : جملة فعلية في موضع نصب على الحال من النَّاسِ
وأفواجا : منصوب على الحال من واو يَدْخُلُونَ .
البلاغة :

(٤٣١/٣٠)

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ خَاصٌ بَعْدَ عَامٍ ، فَإِنَّ نَصْرَ اللَّهِ يَشْمَلُ جَمِيعَ الْفَتْوحَاتِ ، قَالَ الرَّازِيُّ : وَهُوَ
الغلبة على قريش أو على جميع العرب ، فعطف عليه فتح مكة تعظيما لشأنه .
وَرَأَيْتَ النَّاسَ عَامٌ أُرِيدُ بِهِ الْخَاصُّ ، فَلَفِظَ النَّاسَ عَامٌ ، وَالْمُرَادُ بِهِ الْعَرَبُ .
دِينِ اللَّهِ هُوَ الْإِسْلَامُ ، وَأَضَافَهُ تَعَالَى إِلَيْهِ تَشْرِيفًا وَتَعْظِيمًا ، مِثْلُ : بَيْتِ اللَّهِ ، وَنَاقَةِ اللَّهِ . إِنَّهُ كَانَ تَوَابًا
تَوَابٌ : صِيغَةٌ مَبَالِغَةٌ عَلَى وَزْنِ (فَعَالٌ) .
المفردات اللغوية :

نَصْرُ اللَّهِ النَصْرُ : الْعَوْنُ أَوْ الْإِعَانَةُ عَلَى تَحْصِيلِ الْمَطْلُوبِ . وَالْفَتْحُ تَحْصِيلُ الْمَطْلُوبِ الَّذِي كَانَ مَتَعَلِقًا
أَوْ مَوْقُوفًا ، أَوْ الْفَصْلُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ الْمُتَحَارِبِينَ بِانْتِصَارِ أَحَدِهِمَا عَلَى الْآخَرِ ، وَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا فَتْحُ مَكَّةَ ،
فَالْفَرْقُ بَيْنَ النِّصْرِ وَالْفَتْحِ : أَنَّ النِّصْرَ كَالسَّبَبِ لِلْفَتْحِ ، فَلهَذَا بَدَأَ بِذِكْرِ النِّصْرِ ، وَعَطَفَ الْفَتْحَ عَلَيْهِ .
ج ٣٠ ، ص : ٤٤٩

دِينِ اللَّهِ أَيِ الْإِسْلَامِ . أَفْوَاجًا جَمَاعَاتٌ كَثِيفَةٌ ، كَأَهْلِ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ وَالْيَمَنِ وَالهُوْازِنِ وَسَائِرِ قِبَائِلِ الْعَرَبِ
، جَمْعُ فُوجٍ : وَهُوَ الْجَمَاعَةُ وَالطَّائِفَةُ . وَقَدْ دَخَلَتِ الْجَمَاعَاتُ فِي الْإِسْلَامِ بَعْدَ مَا كَانَ الدِّخُولُ فِيهِ فَرْدِيًا
وَاحِدًا بَعْدَ الْآخَرِ ، وَذَلِكَ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ ، جَاءَهُ الْعَرَبُ مِنْ مُخْتَلَفِ الْأَنْحَاءِ طَائِعِينَ . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
أَيِ نَزَّهَ اللَّهُ وَصَلَ لَهُ حَامِدًا عَلَى نِعْمِهِ ، رَوَى : أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا دَخَلَ مَكَّةَ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ ، فَدَخَلَ
الْكَعْبَةَ ، وَصَلَّى ثَمَانِي رَكَعَاتٍ . وَاسْتَعْفَرَهُ اسْأَلَهُ الْمَغْفِرَةَ لَكَ وَلِمَنْ اتَّبَعَكَ ، وَطَلَبَ الْاسْتِغْفَارَ مِنَ النَّبِيِّ
كَانَ لترك الأفضل ، وليقتدي به غيره ، ولم يكن بسبب ارتكاب معصية أو ذنب . و
كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ نَزُولِ هَذِهِ السُّورَةِ يَكْثُرُ مِنْ قَوْلِ : « سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ ، وَاسْتَغْفِرُ اللَّهُ
وَأَتُوبُ إِلَيْهِ » .

وعلم بذلك أنه قد اقترب أجله ، فتوفي بعد فتح مكة بعامين سنة عشر .

التفسير والبيان :

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ أَي إِذَا تَحَقَّقَ لَكَ يَا مُحَمَّدُ نَصْرَ اللَّهِ وَعَوْنَهُ وَتَأْيِيدَهُ عَلَىٰ مِنْ عَادَاكَ وَهُمْ قَرِيشٌ ، وَفَتْحَ عَلَيْكَ مَكَّةَ ، وَتَحَقَّقْتَ لَكَ الْعَلْبَةَ ، وَإِعْزَازَ أَمْرِكَ ، فَسَبِّحِ اللَّهَ تَعَالَىٰ أَي نَزْهَهُ حَامِدًا لَهُ جَلَّ وَعَلَا زِيَادَةً فِي عِبَادَتِهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ لَزِيَادَةِ إِعْنَامِهِ عَلَيْكَ. وَفَائِدَةُ قَوْلِهِ : نَصْرُ اللَّهِ مَعَ أَنَّ النَّصْرَ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنَ اللَّهِ : هُوَ أَنَّهُ نَصْرٌ لَا يَلِيْقُ إِلَّا بِاللَّهِ ، وَلَا يَلِيْقُ أَنْ يَفْعَلَهُ إِلَّا اللَّهُ ، أَوْ لَا يَلِيْقُ إِلَّا بِحِكْمَتِهِ. وَالْمُرَادُ تَعْظِيمُ هَذَا النَّصْرِ. وَقَوْلُهُ : جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ مِجَازٌ ، أَي وَقَعَ نَصْرُ اللَّهِ.

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالْبَيْهَقِيُّ وَالنَّسَائِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « نَعَيْتُ إِلَيَّ نَفْسِي » فَإِنَّهُ مَقْبُوضٌ فِي تِلْكَ السَّنَةِ.

خير ، وأنا وأصحابي خير » ، و

قال فيما رواه الجماعة إلا ابن ماجه عن ابن عباس : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية » .

و

أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحَيْهِمَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَوْمَ الْفَتْحِ : « لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ ، وَإِذَا اسْتَنْفَرْتُمْ فَانْفِرُوا » .

ج ٣٠ ، ص : ٤٥٠

وَ رَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا أَي أَبْصَرْتُ النَّاسَ مِنَ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ الَّذِي بَعَثْتُ بِهِ ، جَمَاعَاتٍ فَوْجًا بَعْدَ فَوْجٍ ، بَعْدَ أَنْ كَانُوا فِي بَادِي الْأَمْرِ يَدْخُلُونَ وَاحِدًا وَاحِدًا ، وَاثْنَيْ اثْنَيْنِ ، فَصَارَتِ الْقَبِيلَةُ تَدْخُلُ بِأَسْرَافِهَا فِي الْإِسْلَامِ.

فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ، إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا أَي إِذَا فَتَحْتَ مَكَّةَ وَانْتَشَرَ الْإِسْلَامُ ، فَاشْكُرِ اللَّهَ عَلَىٰ نِعْمِهِ ، بِالصَّلَاةِ لَهُ ، وَبِتَنْزِيهِهِ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيْقُ بِهِ ، وَعَنْ أَنْ يَخْلِفَ وَعْدَهُ الَّذِي وَعَدَكَ بِهِ بِالنَّصْرِ ، وَاقْرَأِ الْحَمْدَ بِالتَّسْبِيحِ ، أَي اجْمَعْ بَيْنَهُمَا ، فَإِنَّ ذَلِكَ النَّصْرَ وَالْفَتْحَ يَقْتَضِي الْحَمْدَ لِلَّهِ عَلَىٰ عَظِيمِ مَنِّهِ وَفَضْلِهِ ، وَمَا مَنَحَكَ مِنَ الْخَيْرِ .

و اطلب أيضا من الله المغفرة لك تواضعا لله ، واستقصارا لعملك ، وتعلينا لأمتك ، وكذا أسأله المغفرة لمن تبعك من المؤمنين ما كان منهم من القلق والخوف لتأخر النصر ، فإن الله سبحانه من شأنه التوبة على المستغفرين له ، يتوب عليهم ويرحمهم بقبول توبتهم ، وهو كثير القبول لتوبة عباده ،

حتى لا يياسوا ويرجعوا بعد الخطأ.

روى الأئمة- واللفظ للبخاري- عن عائشة رضي الله عنها قالت : « ما صَلَّى رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم صلاة بعد أن نزلت عليه سورة إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ إِلَّا يَقُولُ : سبحانك ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لي » . وعنها قالت : « كان رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم يكثُر أن يقول في ركوعه وسجوده : سبحانك الله ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لي . يتأول القرآن » .

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت السورة على ما يأتي :

١- كل نعمة من الله تعالى تستوجب الشكر والحمد والثناء على الله بما هو

ج ٣٠ ، ص : ٤٥١

أهل له ، ومن أجلّ النعم على نبي الله وأمته تحقيق النصر والغلبة على الأعداء ، وفتح مكة عاصمة العرب والإسلام ، ومقر البيت الحرام أو الكعبة المشرفة قبلة المسلمين.

وتوج الله سبحانه هذه النعمة العظمى بنعمة كبرى أخرى هي دخول العرب وغيرهم في دين الإسلام جماعات ، فوجا بعد فوج. وذلك لما فتحت مكة ، قالت العرب : أمّا إذا ظفر محمد بأهل الحرم ، وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل ، فليس لكم به يدان ، أي طاقة. فكانوا يسلمون أفواجا : أمة أمة.

(٤٣٤/٣٠)

٢- لهذا ختم الله هذه السورة بأمر الله نبيه بالإكثار من الصلاة ، والتسبيح لله ، أي تنزيه الله عن كل ما لا يليق به ولا يجوز عليه ، والحمد لله على ما آتاه من الظفر والفتح ، وسؤال الله الغفران مع مداومة الذكر ، والله كثير القبول للتوبة على المسبّحين والمستغفرين ، يتوب عليهم ويرحمهم ، ويقبل توبتهم.

والأمة أولى بذلك ، فإذا كان صَلَّى الله عليه وسلم ، وهو معصوم ، يؤمر بالاستغفار ، فما الظن بغيره ؟ روى مسلم عن عائشة قالت : « كان رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم يكثُر من قول : سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه ، قالت : فقلت : يا رسول الله ، أراك تكثُر من قول : سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله ، وأتوب إليه ؟ فقال : خبّرني ربي أنني سأرى علامة في أمّتي ، فإذا رأيتها أكثرت من قول : سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه ، فقد رأيتها : إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ - فتح مكة- وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ، وَاسْتَغْفِرْهُ ، إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا .

٣- دين الله هو الإسلام لقوله تعالى : إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ [آل عمران ٣ / ١٩] وقوله : وَمَنْ

يَتَّبِعُ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ [آل عمران ٣ / ٨٥].

ج ٣٠ ، ص : ٤٥٢

٤- قال جمهور الفقهاء وكثير من المتكلمين : إن إيمان المقلد صحيح لأنه تعالى حكم بصحة وإيمان أولئك الأفواج ، وجعله من أعظم المنن على محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ولو لم يكن إيمانهم صحيحا ، لما ذكره في هذا المجال.

(٤٣٥/٣٠)

٥- أمر الله تعالى بالتسبيح أولا ثم بالحمد ثم بالاستغفار لأنه قدم الاشتغال بما يلزم للخالق وهو التسبيح والتحميد على الاشتغال بالنفس. وقدم الأمر بالتسبيح حتى لا يتبادر إلى الذهن أن تأخير النصر سنين لإهمال مثلا ، فالله ينزهه ويقدّس عن إهمال الحق. وأتى بالاستغفار حتى لا يفكر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالاشتغال بالانتقام ممن آذاه.

٦- الآية تدل على فضل التسبيح والتحميد ، حيث جعل كافيا في أداء ما وجب على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأتمته من شكر نعمة النصر والفتح.

٧- اتفق الصحابة على أن هذه السورة دلت على أنه نعي لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. روي أنه لما نزلت هذه السورة خطب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال : « إن عبدا خيره الله بين الدنيا ، وبين لقائه والآخرة ، فاختر لقاء الله » « ١ » .

وقد عرفوا ذلك لأن الأمر بالتسبيح والحمد والاستغفار مطلقا دليل على أن أمر تبليغ الدعوة قد تم وكمل ، وذلك يوجب الموت لأنه لو بقي بعد ذلك ، لكان كالمعزول عن الرسالة ، وهو غير جائز. ثم إن الأمر بالاستغفار تنبيه على قرب الأجل.

(١) تفسير الكشاف : ٣ / ٣٦٥

(٤٣٦/٣٠)

ج ٣٠ ، ص : ٤٥٣

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المسد ، أو : اللهب

مكيّة ، وهي خمس آيات.

تسميتها :

سميت سورة المسد لقوله تعالى في آخرها : فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ أَي فِي عُنُقِ أُمِّ جَمِيلِ زَوْجَةِ أَبِي لَهَبٍ حَبْلٌ مَفْتُولٌ مِنْ لَيْفٍ . وسميت أيضا سورة تَبَّتْ لقوله تعالى فِي مَطْلَعِهَا : تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ أَي هَلَكْتَ وَخَسِرْتَ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ، كَمَا سَمِيَتْ سُورَةُ أَبِي لَهَبٍ ، أَوْ سُورَةُ اللَّهَبِ .

مناسبتها لما قبلها :

هناك تقابل بين هذه السورة والسورة التي قبلها ، ففي السورة السابقة النصر ذكر الله تعالى أن جزاء المطيع حصول النصر والفتح في الدنيا ، والثواب الجزيل في الآخرة ، وفي هذه السورة ذكر أن عاقبة العاصي الخسار في الدنيا والعقاب في الآخرة أو العقبي .

ما اشتملت عليه السورة :

تضمنت هذه السورة المكية بالإجماع الكلام عن مصير أبي لهب عبد العزى بن عبد المطلب ، عم النبي صلى الله عليه وسلم ، ومصير زوجته أم جميل أروى بنت حرب بن أمية ، أخت أبي سفيان ، وهو هلاك أبي لهب عدو الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم في الدنيا ، ودخوله نار جهنم لشدة إيذائه النبي صلى الله عليه وسلم ومعاداته له ، وصدده الناس عن الإيمان به .

ج ٣٠ ، ص : ٤٥٤

و كذلك زوجته شريكة معه في هذا العقاب لأنها كانت عوناً لزوجها على كفره وجحوده وعناده ، فتكون يوم القيامة عوناً عليه في عذابه في نار جهنم .

سبب نزول السورة :

ثبت في الصحيحين وغيرهما- واللفظ لمسلم- عن ابن عباس قال : « لما نزلت : وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ [الشعراء ٢٦ / ٢١٤] ورهطك منهم المخلصين ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا ، فهتف : يا صباحاه! فقالوا : من هذا الذي يهتف ؟ قالوا : محمد . فاجتمعوا إليه ، فقال : يا بني فلان ، يا بني فلان ، يا بني فلان ، يا بني عبد مناف ، يا بني عبد المطلب! فاجتمعوا إليه ، فقال :

« أ رأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل ، أكنتم مصدقي ؟

قالوا : ما جرئنا عليك كذبا ، قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب : تباً لك!

أما جمعتنا إلا لهذا « ١ » ! ثم قام ، فنزلت هذه السورة : « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ، وَقَدْ تَبَّ » كَذَا قَرَأَ الْأَعْمَشُ وَعَبَدُ اللَّهِ وَأَبِي إِلَى آخِرِ السُّورَةِ .

وقراءة حفص : وتب أي الأول دعاء عليه ، والثاني خبر عنه .

و

عن طارق المحاربي قال : « بينا أنا بسوق ذي المجاز ، إذ أنا بشاب حديث السن يقول : أيها الناس ، قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا ، وإذا رجل خلفه يرميه ، قد أدمى ساقيه وعرقوبيه- مؤخر القدم- ويقول :

يا أيها الناس ، إنه كذاب فلا تصدقوه ، فقلت : من هذا ؟ فقالوا : محمد ، زعم أنه نبي ، وهذا عمه أبو لهب يزعم أنه كذاب « ٢ » .

(١) وفي رواية البخاري : ألهدنا جمعنا ؟

(٢) تفسير القرطبي : ٢٠ / ٢٣٦

(٤٣٧/٣٠)

ج ٣٠ ، ص : ٤٥٥

جزاء أبي لهب وامرأته [سورة المسد (١)١١] : الآيات ١ الى ٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ

حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤)

فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥)

الإعراب :

ما أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ ما : إما استفهامية في موضع نصب ب أَغْنَىٰ أو نافية ، ومفعول أَغْنَىٰ محذوف ، وتقديره : ما أغنى عنه ماله شيئاً .

وَمَا كَسَبَ ما : إما مصدرية ، أي وكسبه ، أو اسم موصول ، أي الذي كسبه ، فحذف العائد تخفيفاً .
وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ امْرَأَتُهُ : إما معطوف على ضمير سَيَصْلَىٰ أي سيصلى هو وامرأته ، وجاز العطف على الضمير المرفوع لوجود الفصل لأنه يقوم مقام التأكيد في جواز العطف . وإما أنه مبتدأ مرفوع ، وَحَمَّالَةَ الْحَطَبِ خبره ، على قراءة الرفع . ومن قرأ بالنصب حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فهو منصوب على الذم ، وتقديره : أذم حمالة الحطب .

فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ فِي جِيدِهَا : حال من حَمَّالَةَ الْحَطَبِ أو خبر مبتدأ مقدر .

البلاغة :

يَدَا أَبِي لَهَبٍ مجاز مرسل ، أطلق الجزء وأراد الكل ، أي هلك .

أَبِي لَهَبٍ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ بينهما جناس ، فالأول كنية له ، والثاني وصف للنار .

(٤٣٨/٣٠)

و الجنس : أن يتشابه اللفظان في النطق ، ويختلفا في المعنى ، وهو نوعان : تام ، وغير تام.

أَبِي لَهَبٍ كنية للتصغير والتحقيق ، كأبي جهل.

حَمَّالَةُ الْحَطَبِ استعارة ، أستعير هذا التعبير للنميمة بين الناس.

وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةُ الْحَطَبِ منصوب على الذم ، أي أخص بالذم حمالة الحطب.

وَتَبَّ ، كَسَبَ ، لَهَبٍ ، الْحَطَبِ توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات.

ج ٣٠ ، ص : ٤٥٦

المفردات اللغوية :

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ أَي هلك وخسر ، قال تعالى : وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ [غافر ٤٠ / ٣٧] وهذه

الجملة دعاء عليه ، وأبو لهب : أحد أعمام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واسمه : عبد العزى بن عبد

المطلب ، وكنيته : أبو عتيبة ، وإنما كني أبا لهب لحمرة وجهه. وَتَبَّ أَي قد خسر ، وهذا خبر بعد

الدعاء عليه ، كقولهم : أهلكه الله وقد هلك ، والتعبير بالماضي لتحقيق وقوعه.

وَمَا كَسَبَ أَي وكسبه أو مكسويه بماله من النتائج والأرباح ، وقوله : ما أغنى أي يغني.

سَيَصْلَى نَارًا سِجْدَ حَرِّهَا وَيَذوقُ وَبَالَهَا. ذَاتَ لَهَبٍ لَهَبِ النَّارِ : ما يسطع منها عند اشتعالها ، وذات

لهب : أي تلهب وتوقد ، وهي مناسبة لكنيته بأبي لهب : أي تلهب وجهه إشراقا وحمرة. وَأَمْرَأَتُهُ هِيَ

من سادات قريش ، وكنيتها : أم جميل ، واسمها : أروى بنت حرب بن أمية ، وهي أخت أبي سفيان.

حَمَّالَةُ الْحَطَبِ أَي تحمله حقيقة ، فتحمل حزمة الشوك والحسك ، وتشرها بالليل في طريق رسول الله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. أو تحمل حطب جهنم لأنها تحمل الأوزار بمعاودة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

، وتحمل زوجها على إيدائه. أو أن التعبير كناية عن النميمة التي توقد الخصومة بين الناس.

(٤٣٩/٣٠)

فِي جِيدِهَا فِي عُنُقِهَا. حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ حبل مفتول من ليف ، أي مما مسد أي فتل وربط الحبل على هذه

الصورة : تصوير لها بصورة الحطابة التي تحمل الحزمة ، وتربطها في عنقها ، تحقيرا لشأنها ، أو بيانا

لحالها في نار جهنم حيث يكون على ظهرها حزمة من حطب جهنم كالزقوم والضريع ، وفي جيدها

سلسلة من النار.

التفسير والبيان :

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ، وَتَبَّ « ١ » أي هلكت يداه وخسرت وخابت ، وهو مجاز عن جملته ، أي هلك

وخسر ، وهذا دعاء عليه بالهلاك والخسران. ثم قال :

وَتَبَّ أَي وقد وقع فعلا هلاكه ، وهذا خبر من الله عنه ، فقد خسر الدنيا والآخرة. وأبو لهب : عم

النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، واسمه عبد العزى بن عبد المطلب ، وقد كان كثير الأذى والبغض والازدراء لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولدينه.

(١) لم يقل في أول هذه السورة قل كما في سورة الكافرين ، حتى لا يشافه عمه بما يزيد في غضبه ، رعاية للحرمة ، وتحقيقاً لمبدأ الرحمة.

ج ٣٠ ، ص : ٤٥٧

ثم أخبر الله تعالى عن حال أبي لهب في الماضي ، فقال :

ما أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ أَي لَمْ يَدْفَعْ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا جَمَعَ مِنَ الْمَالِ ، وَلَا مَا كَسَبَ مِنَ الْأَرْيَاحِ وَالْجَاهِ وَالْوَلَدِ ، وَلَمْ يَفِدْهُ ذَلِكَ فِي دَفْعِ مَا يَحِلُّ بِهِ مِنَ الْهَلَاكِ ، وَمَا يَنْزِلُ بِهِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ، بِسَبَبِ شِدَّةِ مَعَادَاتِهِ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَصَدَّةِ النَّاسِ عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ ، فَإِنَّهُ كَانَ يَسِيرُ وَرَاءَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَإِذَا قَالَ شَيْئًا كَذَبَهُ.

(٤٤٠/٣٠)

روى الإمام أحمد عن ربيعة بن عبّاد من بني الدّيل ، وكان جاهلياً فأسلم ، قال : « رأيت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الجاهلية في سوق ذي المجاز ، وهو يقول : يا أيها الناس ، قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا ، والناس مجتمعون عليه ، ووراءه رجل وضيء الوجه ، أحول ، ذو غديرتين يقول : إنه صابئ كاذب ، يتبعه حيث ذهب ، فسألت عنه ، فقالوا : هذا عمه أبو لهب » .

والفرق بين المال والكسب :

أن الأول رأس المال ، والثاني هو الربح.

ثم ذكر الله تعالى عقابه في المستقبل ، فقال :

سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ أَي سَيَذُوقُ حَرَّ نَارِ جَهَنَّمَ ذَاتِ اللَّهَبِ الْمَشْتَعِلِ الْمَتَوَقَّدِ ، أَوْ سَوْفَ يَعْذَبُ فِي النَّارِ الْمَلْتَهَبَةِ الَّتِي تَحْرُقُ جُلْدَهُ ، وَهِيَ نَارُ جَهَنَّمَ. قال أبو حيان : والسین للاستقبال ، وإن تراخى الزمان ، وهو وعيد كائن إنجازه لا محالة ، وإن تراخى وقته « ١ » .

وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ أَي وَتَصَلَى أَمْرَأَتُهُ أَيْضاً نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ ، وَهِيَ أُمُّ جَمِيلٍ ، أَرَوَى بِنْتُ حَرْبٍ ، أُخْتُ أَبِي سَفْيَانَ ، كَانَتْ تَحْمِلُ الشُّوكَ وَالْغَضَى ، وَتَطْرَحُهُ بِاللَّيْلِ عَلَى طَرِيقِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وقيل : المراد أنها كانت تمشي بالنميمة ،

(١) البحر المحيط : ٥٢٦ / ٨ [.....]

ج ٣٠ ، ص : ٤٥٨

فيقال للمشاء بالنمائم ، المفسد بين الناس : يحمل الحطب بينهم ، أي يوقد بينهم النائرة ، ويورث الشر ، وهذا رأي الكثيرين .

قال أبو حيان : والظاهر أنها كانت تحمل الحطب ، أي ما فيه شوك ، لتؤذي بإلقائه في طريق الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، لتعقرهم ، فذمت بذلك ، وسميت حمالة الحطب .

(٤٤١/٣٠)

في جديها حبلٌ من مسدٍ أي في عنقها حبل مفتول من الليف ، من مسد النار ، أي مما مسد من حبالها أي فتل من سلاسل النار . وقد صورها الله في حالة العذاب بنار جهنم بصورة حالتها في الدنيا عند النميمة ، وحينما كانت تحمل حزمة الشوك وتربطها في جديها ، ثم تلقيها في طريق النبي صلى الله عليه وسلم لأن كل مجرم يعذب بما يجانس حاله في جرمه . وقيل : صورها الله في الدنيا بصورة حطابة ممتهنة احتقارا لها ، وإيذاء لها ولزوجها .

ولما سمعت أم جميل هذه السورة أتت أبا بكر ، وهو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد ، وبيدها فهر (حجر) فقالت : بلغني أن صاحبك هجاني ، ولأفعلن وأفعلن ، وأعمى الله تعالى بصرها ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فروي أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه قال لها : هل تري معي أحدا ؟ فقالت : أتتهزأ بي ؟ لا أرى غيرك « ١ » .

والظاهر هو المعنى الأول قال سعيد بن المسيب : كانت لأم جميل قلادة فاخرة ، فقالت : واللات والعزى لأنفقتها في عداوة محمد ، فأعقبها الله حبالا في جديها من مسدالنار .

(١) البحر المحيط : ٥٢٦ / ٨ وما بعدها ، تفسير ابن كثير : ٥٦٤ / ٤ وما بعدها .

ج ٣٠ ، ص : ٤٥٩

فقه الحياة أو الأحكام :

١- أوضحت السورة نوع عذاب أبي لهب وزوجته أم جميل ، ومآلهما في الدارين لشدة عداوتهما لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

أما الآيات الأولى في أبي لهب فقد تضمنت الإخبار عن الغيب من ثلاثة أوجه :

أحدها- الإخبار عنه بالتباعد والخسار ، وبوقوع ذلك فعلا .

وثانيها- الإخبار عنه بعدم الانتفاع بماله وولده ، وبوقوع ذلك فعلا .

وثالثها- الإخبار عنه بأنه من أهل النار ، وقد كان كذلك لأنه مات على الكفر .

و تكليف أبي لهب بالإيمان في حد ذاته لا مانع منه ، وإن كان الله قد علم أنه لا يؤمن ، وأخبر أيضا أنه لا يؤمن وأنه من أهل النار ، قال الآمدي : أجمع الكل على جواز التكليف بما علم الله أنه لا يكون عقلا ، وعلى وقوعه شرعا ، كالتكليف بالإيمان لمن علم الله أنه لا يؤمن كأبي جهل « ١ » . وأيد ذلك الرازي في تفسيره «

والخلاصة : أنه كلف بتصديق الرسول صلى الله عليه وسلم فقط ، لا تصديقه وعدم تصديقه ، حتى يجتمع النقيضان « ٣ » .

وأما الآيتان الأخيرتان : فتصفان عذاب أم جميل بأنها مع زوجها تصلى نار جهنم وتدوق حرها وتتلظى بلهبها ، وأنها هالكة في الدنيا ، ومعذبة في الآخرة بحبل من نار ، وسلاسل من نار جهنم تطوقها ، لإيذائها النبي صلى الله عليه وسلم ، فإنها كانت في غاية العداوة له ، ولإفسادها بين الناس بالنميمة وتأجيج نار العداوة بينهم.

(١) الإحكام في أصول الأحكام للآمدي : ٧٣ / ١

(٢) تفسير الرازي : ١٧١ / ٣٢

(٣) غرائب القرآن : ٢١٤ / ٣٠ .

ج ٣٠ ، ص : ٤٦٠

قال الضحاك وغيره : كانت تعير النبي صلى الله عليه وسلم بالفقر ، وهي تحتطب في حبل ، تجعله في جيدها من ليف ، فخنقها الله جل وعزّ به في الدنيا ، فأهلكها ، وهو في الآخرة حبل من نار .

٢- قال العلماء : في هذه السورة معجزة ظاهرة ودليل واضح على النبوة ، فإنه منذ نزل قوله تعالى : سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ ، وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ، فِي جِذِّهَا حَبْلٌ مِّنْ مَّسَدٍ فَأَخْبِرْ عَنْهُمَا بِالشَّقَاءِ وَعَدِمِ الْإِيمَانَ ، لم يقيض لهما أن يؤمنا ، ولا واحد منهما ، لا ظاهرا ولا باطنا ، ولا سرا ولا علنا ، فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة الباطنة على النبوة الظاهرة « ١ » .

(١) تفسير ابن كثير : ٥٦٥ / ٤

ج ٣٠ ، ص : ٤٦١

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الإخلاص

مكيّة ، وهي أربع آيات.

تسميتها :

سميت بأسماء كثيرة أشهرها سورة الإخلاص لأنها تتحدث عن التوحيد الخالص لله عز وجل ، المنزه عن كل نقص ، المبرأ من كل شرك ، ولأنها تخلّص العبد من الشرك ، أو من النار. وسميت أيضا سورة التفريد أو التجريد أو التوحيد أو النجاة أو الولاية لأن من قرأها صار من أولياء الله ، أو المعرفة ، وتسمى كذلك سورة الأساس لاشتمالها على أصول الدين.

مناسبتها لما قبلها :

المناسبة بينها وبين ما قبلها واضحة ، فسورة الكافرين للتبرؤ من جميع أنواع الكفر والشرك ، وهذه السورة لإثبات التوحيد لله تعالى ، المتميز بصفات الكمال ، المقصود على الدوام ، المنزه عن الشرك والشبيه ، ولذا قرن بينهما في القراءة في صلوات كثيرة ، كركعتي الفجر والطواف ، والضحي ، وسنة المغرب ، وصلاة المسافر.

ما اشتملت عليه السورة :

تضمنت هذه السورة أهم أركان العقيدة والشريعة الإسلامية ، وهي توحيد الله وتنزيهه ، واتصافه بصفات الكمال ، ونفي الشركاء ، وفي هذا الرد على النصارى القائلين بالتثليث ، وعلى المشركين الذين عبدوا مع الله آلهة أخرى.

ج ٣٠ ، ص : ٤٦٢

فضلها :

وردت أحاديث كثيرة في فضل هذه السورة ، وأنها تعدل في ثواب قراءتها ثلث القرآن لأن كل ما جاء في القرآن بيان لما أجمل فيها ولأن الأصول العامة للشريعة ثلاثة : التوحيد ، وتقرير الحدود والأحكام ، وبيان الأعمال ، وقد تكفلت ببيان التوحيد والتقديس.

أخرج البخاري وأبو داود والنسائي عن أبي سعيد الخدري : « أن رجلا سمع رجلا يقرأ قل : هُوَ اللهُ أَحَدٌ يرددّها ، فلما أصبح ، جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلّم ، فذكر ذلك له ، وكأن الرجل يتقالّها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلّم : والذي نفسي بيده ، إنها لتعدل ثلث القرآن » .

وفي رواية أخرى للبخاري عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة ؟ فشق ذلك عليهم ، وقالوا : أينا يطيق ذلك يا رسول الله ؟ فقال : الله الواحد الصمد ثلث القرآن » .

وروى مسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحشدوا ، فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن ، فحشد من حشد ، ثم خرج نبي الله صلى الله عليه وسلم ، فقرأ : قُلْ : هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ثم دخل ، فقال بعضنا لبعض : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن ، إني لأرى هذا خيرا جاء من السماء ، ثم خرج نبي الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : إني قلت : سأقرأ عليكم ثلث القرآن ، ألا وإنها تعدل ثلث القرآن » .

وروى الإمام أحمد والترمذي والنسائي عن أبي أيوب الأنصاري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة ؟ فإنه من قرأ : قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ في ليلة ، فقد قرأ ليلئذ ثلث القرآن » .

ج ٣٠ ، ص : ٤٦٣

سبب نزول السورة :

أخرج الإمام أحمد والترمذي وابن جرير عن أبي بن كعب : أن المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : يا محمد ، انسب لنا ربك ، فأنزل الله تعالى : قُلْ : هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ .

زاد ابن جرير والترمذي قال : « الصَّمَدُ الذي لم يلد ولم يولد لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت ، وليس شيء يموت إلا سيورث ، وإن الله عز وجل لا يموت ولا يورث . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ولم يكن له شبيه ولا عدل » ١ ، وليس كمثلته شيء » .

(٤٤٥/٣٠)

وقال قتادة والضحاك ومقاتل : جاء ناس من اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : صف لنا ربك ، فإن الله أنزل نعتة في التوراة ، فأخبرنا من أي شيء هو ؟ ومن أي جنس هو ؟ أذهب هو أم نحاس أم فضة ؟ وهل يأكل ويشرب ؟

وممن ورث الدنيا ومن يورثها ؟ فأنزل الله تبارك وتعالى هذه السورة ، وهي نسبة الله خاصة « ٢ » .

سورة التوحيد والتنزيه لله عز وجل [سورة الإخلاص (١) (٢) : الآيات ١ الى ٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)

(١) قال الأخفش : العدل بالكسر المثل ، وقال الفراء : العدل بالفتح : ما عدل الشيء من غير جنسه ، والعدل بالكسر المثل .

(٢) أسباب النزول للواحيدي : ص ٢٦٢

(٤٤٦/٣٠)

ج ٣٠ ، ص : ٤٦٤

الإعراب :

قُلْ : هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ هُوَ : ضمير الشأن والحديث ، مبتدأ ، واللَّهُ : مبتدأ ثان ، وأَحَدٌ : خبر المبتدأ الثاني ، والجملة منهُما خبر المبتدأ الأول ، ولا حاجة لعائد يعود على المبتدأ الأول لأن ضمير الشأن إذا وقع مبتدأ ، لم يعد من الجملة التي وقعت خبراً عنه ضمير لأن الجملة بعده وقعت مفسرة له ، بدليل أنه لا يجوز تقديمها عليه .

اللَّهُ الصَّمَدُ مبتدأ وخبر .

لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ لَمْ يَلِدْ : أصله (يولد) فحذفت الواو لوقوعها بين ياء وكسرة ، كيعد ، ويزن ، والأصل : يوعد ويوزن ، ولهذا لم تحذف في يُولَدُ لوقوعها بين ياء وفتحة . وأَحَدٌ : اسم يَكُنْ ، وَكُفُوًا : خبرها . وَلَهُ :

متعلق ب كُفُوًا وقدم عليه للاهتمام به إذ فيه ضمير البارئ تعالى ، والتقدير : ولم يكن أحد كفواً له ، أي مكافئه ، فهو في معنى المفعول ، متعلق ب كُفُوًا . وآخر أَحَدٌ رعاية للفاصلة .
البلاغة :

قُلْ : هُوَ ذكر الاسم الجليل بضمير الشأن للتعظيم والإجلال .

اللَّهُ الصَّمَدُ تعريف كل منهما لإفادة التخصيص .

لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ جناس ناقص ، لتغير الشكل وبعض الحروف .

قُلْ : هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ يقتضي نفي الكفاء والولد ، وقوله : وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ هو تخصيص بعد تعميم ، زيادة في الإيضاح والبيان ، وتقرير ما يسمى التجريد أو التفريد .

أَحَدٌ ، الصَّمَدُ ، لَمْ يُولَدْ ، أَحَدٌ سجع مرصع .

المفردات اللغوية :

أَحَدٌ أي واحد في ذاته ، لم يتركب من جواهر مادية ولا من أصول غير مادية ، وهو أيضاً وصف

بالوحدانية ونفي الشركاء. الصَّمَدُ المقصود في جميع الحوائج على الدوام. لَمْ يَلِدْ لأنه لم يفتقر إلى ما يعينه ، ولأنه لا مجانسة بينه وبين غيره فهذا نفي للشبه والمجانسة. وَلَمْ يُؤَلَّدْ لأنه قديم أولي غير محدث ، انتفى الحدوث عنه ، فهو وصف بالقدم والأولية. كُفُّوا أي مكافئاً ومماثلاً. والكف والمكافئ : النظير والمثيل ، والمراد أنه لم يكن أحد يكافئه ، في يماثله من صاحبه وغيرها.

ج ٣٠ ، ص : ٤٦٥

التفسير والبيان :

قُلْ : هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ أي قل أيها الرسول لمن سألك عن صفة ربك ونسبته : هو الله أحد ، أي واحد في ذاته وصفاته ، لا شريك له ، ولا نظير ولا عدل. وهذا وصف بالوحدانية ونفي الشركاء. والمعنى : هو الله الذي تعرفونه وتقرّون بأنه خالق السموات والأرض وخالقكم ، وهو واحد متوحد بالألوهية ، لا يشارك فيها. وهذا نفي لتعدد الذات.

اللَّهُ الصَّمَدُ أي الذي يصمد إليه في الحاجات ، أي يقصد ، فهو المقصود في جميع الحاجات لأنه القادر على تحقيقها ، والمعنى : هو الله الذي يقصد إليه كل مخلوق ، لا يستغني عنه أحد ، وهو الغني عنهم. وهذا إبطال لاعتقاد مشركي العرب وأمثالهم بوجود الوسائط والشفعاء.

(٤٤٧/٣٠)

قال ابن عباس في تفسير الصمد : يعني الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم ، وهو السيد الذي قد كمل في سؤده ، والشريف الذي قد كمل في شرفه ، والعظيم الذي قد كمل في عظمته ، والحليم الذي قد كمل في حلمه ، والعليم الذي قد كمل في علمه ، والحكيم الذي قد كمل في حكمته ، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد ، وهو الله سبحانه ، هذه صفته ، لا تنبغي إلا له ، ليس له كفء ، وليس كمثل شيء ، سبحانه الله الواحد القهار.

لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُؤَلَّدْ أي لم يصدر عنه ولد ، ولم يصدر هو عن شيء لأنه لا يجانسه شيء ، ولأنه قديم غير محدث ، لا أول لوجوده ، وليس بجسم وهذا نفي للشبه والمجانسة ، ووصف بالقدم والأولية ، ونفي الحدوث.

وفي الجملة الأولى نفي لوجود الولد لله ، ورد على المشركين الذين زعموا أن الملائكة بنات الله ، وعلى اليهود القائلين : عزير ابن الله ، وعلى النصارى الذين قالوا : المسيح ابن الله ، وفي الجملة الثانية نفي لوجود الوالد ، وسبق العدم.

ج ٣٠ ، ص : ٤٦٦

وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ أي ليس لله أحد يساويه ، ولا يماثله ، ولا يشاركه في شيء. وهذا نفي لوجود

الصاحبة ، وإبطال لما يعتقد به المشركون العرب من أن لله ندًا في أفعاله ، حيث جعلوا الملائكة شركاء لله ، والأصنام والأوثان أندادا لله تعالى .

(٤٤٨/٣٠)

و للسورة نظائر في آيات أخرى ، مثل قوله تعالى : بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ [الأنعام ٦ / ١٠١] أي هو مالك كل شيء وخالقه ، فكيف له من خلقه نظير ؟ ، وقوله : وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ، إِنَّ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا [مريم ١٩ / ٩٢ - ٩٥] وقوله : وَقَالُوا : اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ، سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ، لَا يُسَبِّحُونَهُ بِالْقَوْلِ ، وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ [الأنبياء ٢١ / ٢٦ - ٢٧] .

جاء في صحيح البخاري : « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، إنهم يجعلون له ولدا ، وهو يرزقهم ويعافئهم » .

وروى البخاري أيضا وعبد الرزاق عن أبي هريرة عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : « قال الله عز وجل : كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، وَشْتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ : لَنْ يَعْبُدَنِي كَمَا بَدَأْنِي ، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ ، وَأَمَّا شْتَمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ : اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا ، وَأَنَا الْأَحَدُ الصَّمَدُ ، لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفُوًا أَحَدٌ » .
فقه الحياة أو الأحكام :

١ - تضمنت هذه السورة الموجزة إثباتا ونفيا في آن واحد .

فقد أبانت أن الله تعالى واحد في ذاته وحقيقته ، منزه عن جميع أنحاء التركيب ، ونفت عنه كل أنواع الكثرة بقوله : اللهُ أَحَدٌ .

ج ٣٠ ، ص : ٤٦٧

وأوضحت أن الله غني بذاته كريم رحيم ، تحتاج إليه جميع الخلائق في قضاء الحوائج ، منتصف بجميع صفات الكمال ، ونعوت الجلال ، ونفت عنه كل أنواع الاحتياج إلى الآخرين بقوله : اللهُ الصَّمَدُ .

(٤٤٩/٣٠)

وقررت أن الله أحد فرد ، ليس له شيء من جنسه ، ولم يلد أحدا ، وليس له لاحق يماثله ، ونفت عن نفسه المجانسة والمشابهة بقوله : لَمْ يَلِدْ .

وكذلك هو قديم أولي أزلي غير مسوق بالعدم ، فلا والد له ، ولا سابق له ، ونفت عنه الحدوث والأولية بقوله : وَلَمْ يُوَلَّدْ.

وهو سبحانه أيضا لا مقارن له في الوجود ، ولا شبيه له ولا نظير ولا صاحبة ولا نديد ، ونفى عن ذاته العلية الأنداد والأشباه بقوله : وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ.

وكل إثبات تقرير لعقيدة الإسلام القائمة على التوحيد والتنزيه والتقدیس ، وكل نفي رد على أصحاب العقائد الباطلة كالثنوية القائلين بوجود إلهين اثنين للعالم وهما النور والظلمة ، والنصارى القائلين بالثالوث ، والصابئة القائلين بعبادة الأفلاك والنجوم ، واليهود الذين يقولون : عزير ابن الله ، والمشركون القائلين بأن الملائكة بنات الله.

فقوله : أَحَدٌ يَظَلُّ مَذْهَبَ الثَّنَوِيَّةِ ، وقوله : اللَّهُ الصَّمَدُ تَبَطَّلَ مَذْهَبَ مَنْ أَثْبَتَ خَالِقًا سِوَى اللَّهِ لِأَنَّهُ لَوْ وَجَدَ خَالِقَ آخَرَ ، لما كان الحق مضمودا إليه في طلب جميع الحاجات ، وقوله : لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ يَظَلُّ مَذْهَبَ الْيَهُودِ فِي عَزِيرٍ ، والنصارى في المسيح ، والمشركون في أن الملائكة بنات الله. وقوله : وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ يَظَلُّ مَذْهَبَ الْمَشْرُوكِينَ حَيْثُ جَعَلُوا الْأَصْنَامَ أَكْفَاءَ لِلَّهِ وَشُرَكَاءَ.

ج ٣٠ ، ص : ٤٦٨

٢- قال العلماء : هذه السورة في حق الله تعالى ، مثل سورة الكوثر في حق الرسول صلى الله عليه وسلم ، لكن الطعن في حق الرسول صلى الله عليه وسلم كان بسبب أنهم قالوا : إنه أبترا لا ولد له ، وهنا الطعن بسبب أنهم أثبتوا لله ولدا لأن عدم الولد في حق الإنسان عيب ، ووجود الولد عيب في حق الله تعالى ، ولهذا السبب قال هنا : قُلْ لِيُدْفَعِ عَنِ اللَّهِ ، وفي سورة إنا أعطيناك لم يقل (قل) وإنما قال الله ذلك مباشرة ، حتى يدفع بنفسه عن الرسول صلى الله عليه وسلم « ١ » .

(١) تفسير الرازي ٣٢ / ١٨٥

(٤٥٠/٣٠)

ج ٣٠ ، ص : ٤٦٩

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الفلق

مكية ، وهي خمس آيات.

مكيته أو مدنيته :

هذه السورة وسورة الناس مكية في قول الحسن وعطاء وعكرمة وجابر وهو رأي الأكثرين ، ومدنية في رواية عن ابن عباس وقتادة وجماعة ، قيل : وهو الصحيح .

تسميتها :

سميت هذه السورة سورة الفلق ، لافتتاحها بقوله تعالى : قُلْ : أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ وَالْفَلَقِ الشَّقِ وفصل الشيء عن بعضه ، وهو يشمل كل ما انفلق من حب ونوى ونبات عن الأرض ، وعيون ماء عن الجبال ، ومطر عن السحاب ، وولد عن الأرحام ، ومنه : فَلَاقُ الْإِصْبَاحِ [الأنعام ٦ / ٩٦] ، وفَلَاقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى [الأنعام ٦ / ٩٥] .

مناسبتها لما قبلها :

لما أبان الله تعالى أمر الألوهية في سورة الإخلاص لتنزيه الله عما لا يليق به في ذاته وصفاته ، أبان في هذه السورة وما بعدها وهما المعوذتان ما يستعاذ منه بالله من الشر الذي في العالم ، ومراتب مخلوقاته الذين يصدون عن توحيد الله ، كالمشركين وسائر شياطين الإنس والجن ، وقد ابتدأ في هذه السورة بالاستعاذة من

ج ٣٠ ، ص : ٤٧٠

شر المخلوقات ، وظلمة الليل ، والسحرة ، والحساد ، ثم ذكر في سورة الناس الاستعاذة من شر شياطين الإنس والجن لذا سميت السور الثلاثة (الإخلاص وما بعدها) في الحديث بالمعوذات . وقدمت الفلق على الناس لمناسبة الوزن في اللفظ لفواصل الإخلاص مع مقطع تَبَّتْ . ما اشتملت عليه السورة :

(٤٥١/٣٠)

تضمنت السورة الاستعاذة من شر المخلوقات ، وبخاصة ظلمة الليل ، والسواحر والنامين ، والحسدة ، وهي درس بليغ وتعليم نافع عظيم لحماية الناس بعضهم من بعض بسبب أمراض النفوس ، وحمايتهم من شر ذوات السموم ، وشر الليل إذا أظلم ، لما فيه من مخاوف ومفاجات ، وبخاصة في البراري والكهوف .

فضل المعوذتين :

روى مسلم في صحيحه وأحمد والترمذي والنسائي عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم ير مثلهن قط : قُلْ : أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ وَقُلْ : أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ » .

و

روى أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي عن عقبة بن عامر قال : « أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقرأ بالمعوذات في دبر كل صلاة » .

و

روى أحمد وأبو داود والنسائي عن عقبة بن عامر قال : « بينا أنا أقود برسول الله صلى الله عليه وسلم في نعب من تلك النقاب إذ قال لي : يا عقبة ألا تتركب ! قال :

فأشفقت أن تكون معصية ، قال : فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم وركبت هنية ثم ركب ، ثم قال : يا عقب « ١ » ، ألا أعلمك سورتين من خير سورتين قرأ بهما الناس ؟ قلت :

بلى ، يا رسول الله ، فأقرأني قل : أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ وَقُلْ : أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ

(١) عقب : منادى مرخم من عقبة ، مثل أفاطم من فاطمة .

ج ٣٠ ، ص : ٤٧١

ثم أقيمت الصلاة ، فتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقرأ بهما ثم مرّ بي ، فقال : كيف رأيت يا عقب ، اقرأ بهما كلما نمت وكلما قمت » .

و

روى النسائي عن أبي عبد الله بن عابس الجهني : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : « يا ابن عابس ألا أدلك - أو ألا أخبرك - بأفضل ما يتعوذ به المتعوذون ؟ قال :

(٤٥٢/٣٠)

بلى يا رسول الله ، قال : قل أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ، وقل أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ، هاتان السورتان » . وأورد ابن كثير أحاديث كثيرة في معناها ثم قال : فهذه طرق عن عقبة كالمتواترة عنه ، تفيد القطع عند كثير من المحققين في الحديث .

و

في حديث صدي بن عجلان : « ألا أعلمك ثلاث سور ، لم ينزل في التوراة ، ولا في الإنجيل ، ولا في الزبور ، ولا في الفرقان مثلهن : قُلْ : هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ وَقُلْ : أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ وَقُلْ : أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ » .

و

روى البخاري وأهل السنن في الاستشفاء بهذه السور الثلاث (المعوذات) عن عائشة : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة ، جمع كفيه ، ثم نفث فيهما وقرأ فيهما : قُلْ : هُوَ اللَّهُ

أَحَدٌ ، وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ، وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ، ثم يمسخ بهما ما استطاع من جسده ، يبدأ بهما على رأسه ووجهه ، وما أقبل من جسده ، يفعل ذلك ثلاث مرات .
سبب نزول المعوذتين :

السبب : قصة سحر لبيد بن الأعصم اليهودي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما جاء في الصحيحين عن عائشة ، فإنه سحره في جفّ (قشر الطلع) فيه مشاطة رأسه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وأسنان مشطه ، ووتر معقود فيه إحدى عشرة عقدة مغروز بالإبر ، فأنزلت عليه المعوذتان ، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة ، ووجد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في نفسه

ج ٣٠ ، ص : ٤٧٢

خفة ، حتى انحلت العقدة الأخيرة ، فقام ، فكأنما نشط من عقال « ١ » . وجعل جبريل يرقى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فيقول : « باسم الله أرقيك ، من كل شيء يؤذيك ، من شر حاسد وعين ، والله يشفيك » .

الاستعاذة من شرّ المخلوقات [سورة الفلق (١١) (٣) : الآيات ١ الى ٥]
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٥٣/٣٠)

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤)

وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥)

الإعراب :

قُلْ : أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ أَعُوذُ : فعل معتل ، ويسمى « أجوف » وأصله : أَعُوذُ عَلَى وَزْنِ أَفْعَلِ ، إلا أنه استثقلت الضمة على الواو لأنه حرف علة ، فنقلت من العين التي هي الواو إلى ما قبلها .

مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ شَرٌّ بغير تنوين على الإضافة في القراءة المشهورة ، وما :

مصدرية ، وتقديره : من شرّ خلقه . وقرئ « من شرّ ما خلق » بتنوين شَرٌّ وهي قراءة مروية عن أبي حنيفة ، وما : فيها أيضا مصدرية ، في موضع جر على البدل من شرّ أي من خلقه .

البلاغة :

الْفَلَقِ وَخَلَقَ بينهما جناس ناقص .

شَرٌّ مَا خَلَقَ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ تكرر كلمة شَرٌّ مرات إطناب ، للتنبيه على قبح وشناعة هذه الأوصاف .

شَرَّ غَاسِقٍ شَرَّ النَّفَّاثَاتِ شَرَّ حَاسِدٍ خَاصٍ بَعْدَ عَامٍ وَهُوَ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ.
حَاسِدٍ وَحَسَدٍ جَنَاسٍ اشْتِقَاقٍ.

(١) البحر المحيط : ٥٣٠ / ٨

ج ٣٠ ، ص : ٤٧٣

الْفَلَقِ خَلَقَ ، الْعُقَدِ حَسَدًا تَوَافَقَ الْفَوَاصِلَ مِرَاعَاةً لِرُؤُوسِ الْآيَاتِ.
المفردات اللغوية :

(٤٥٤/٣٠)

أَعُوذُ أَلْجَأُ. الْفَلَقِ شِقُّ الشَّيْءِ وَفَصْلٌ بَعْضُهُ عَنِ بَعْضٍ ، وَمِنْهُ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ [الأُنْعَامُ ٦ / ٩٦] ، وَفَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى [الأُنْعَامُ ٦ / ٩٥] ، وَالْفَلَقِ يَشْمَلُ كُلَّ مَا يَفْلُقُهُ اللَّهُ عَنْ غَيْرِهِ ، كَفَلَقَ ظِلْمَةَ اللَّيْلِ بِالصَّبْحِ ، وَفَلَقَ الْعَيُونَ وَالْأَمْطَارَ وَالنَّبَاتَ وَالْأَوْلَادَ ، وَيَخْصُ الْفَلَقُ عَرَفًا بِالصَّبْحِ ، وَلِذَلِكَ فَسَّرَ بِهِ ، وَتَخْصِيصُهُ لِمَا فِيهِ مِنْ تَغْيِيرِ الْحَالِ ، وَتَبَدُّلِ وَحْشَةِ اللَّيْلِ بِسُرُورِ النُّورِ ، وَالْإِشْعَارَ بِأَنَّ مِنْ قَدَرِ أَنْ يَزِيلَ ظِلْمَةَ اللَّيْلِ عَنْ هَذَا الْعَالَمِ قَدْرَ أَنْ يَزِيلَ عَنِ الْعَائِدِ إِلَيْهِ مَا يَخَافُهُ. وَلَفْظُ الرَّبِّ هُنَا أَوْقَعُ مِنْ سَائِرِ أَسْمَائِهِ لِأَنَّ الْإِعَادَةَ مِنَ الْمَضَارِّ تَرْبِيَةٌ وَعِنَايَةٌ.

مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ مِنْ شَرِّ الْمَخْلُوقَاتِ كُلِّهَا ، وَخَصَّ عَالَمَ الْخَلْقِ بِالِاسْتِعَاذَةِ مِنْهُ لِانْحِصَارِ الشَّرِّ فِيهِ ، وَهُوَ يَشْمَلُ الْحَيَوَانَ وَالْإِنْسَانَ وَالْجَمَادَ كَالسَّمِّ وَغَيْرِهِ. غَاسِقٍ لَيْلٍ اشْتَدَّ ظِلَامُهُ. وَقَبَّ دَخَلَ ظِلَامَهُ وَتَخْصِيصُهُ لِأَنَّ الْمَضَارَّ تَكْثُرُ فِيهِ وَيَعْسِرُ الدَّفْعَ. النَّفَّاثَاتِ السَّوَاحِرُ مِنَ النُّفُوسِ أَوْ النِّسَاءِ تَنْفُثُ. فِي الْعُقَدِ الَّتِي تَعْقِدُهَا فِي الْخَيْطِ ، وَالنَّفْثِ : النَّفْخُ مَعَ رِيْقٍ يَخْرُجُ مِنَ الْفَمِ ، وَالْعُقَدُ جَمْعُ عَقْدَةٍ : وَهِيَ مَا يَعْقُدُ مِنْ حَبْلٍ أَوْ خَيْطٍ وَنَحْوِهِمَا. حَاسِدٍ هُوَ الَّذِي يَتَمَنَّى زَوَالَ نِعْمَةِ الْمَحْسُودِ. وَخَصَّ الْحَاسِدَ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُ الْعَمْدَةُ فِي الظَّاهِرِ وَالسَّبَبُ فِي إِضْرَارِ الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانَ وَغَيْرِهِمَا. وَذَكَرَ هَذِهِ الْأَصْنَافَ الثَّلَاثَةَ بَعْدَ التَّعْمِيمِ الشَّامِلِ لَهَا مَا خَلَقَ لِشِدَّةِ شَرِّهَا.

التفسير والبيان :

قُلْ : أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ، مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ أَي قُلْ أَيُّهَا النَّبِيُّ : أَلْجَأُ إِلَى اللَّهِ ، وَأَسْتَعِيذُ بِرَبِّ الصَّبْحِ لِأَنَّ اللَّيْلَ يَنْفَلِقُ عَنْهُ ، أَوْ بِرَبِّ كُلِّ مَا انْفَلَقَ عَنْ جَمِيعِ مَا خَلَقَ اللَّهُ ، مِنَ الْحَيَوَانَ ، وَالصَّبْحِ ، وَالْحَبِّ ، وَالنَّوَى ، وَكُلِّ شَيْءٍ مِنْ نَبَاتٍ وَغَيْرِهِ ، أَعُوذُ بِاللَّهِ خَالِقِ الْكَائِنَاتِ مِنْ شَرِّ كُلِّ مَا خَلَقَهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ مِنْ جَمِيعِ مَخْلُوقَاتِهِ. وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْقَادِرَ عَلَى إِزَالَةِ الظُّلْمَةِ عَنْ وَجْهِ الْأَرْضِ قَادِرٌ عَلَى دَفْعِ ظِلْمَةِ الشُّرُورِ وَالْآفَاتِ عَنِ الْعَبْدِ.

أخرج الترمذي وحسنه والبيهقي عن أبي سعيد الخدري ، قال : « كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتعوّذ من عين الجن ، ومن عين الإنس ، فلما نزلت سورتا المعوذتين ، أخذ بهما ، وترك ما سوى ذلك . »

ج ٣٠ ، ص : ٤٧٤

و

أخرج مالك في الموطأ عن عائشة : « أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا اشتكى ، يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث ، فلما اشتد وجعه ، كنت أقرأ عليه ، وأمسح بيده عليه ، رجاء بركتهما . » .
وبعد أن عمم الاستعاذة من جميع المخلوقات ، خصص بالذكر ثلاثة أصناف تنبئها على أنها أعظم الشرور ، وأهم شيء يستعاذ منه ، وهي :

١- وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ أَي وَأَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ اللَّيْلِ إِذَا أَقْبَلَ لِأَنَّ فِي اللَّيْلِ مَخَافَ وَمَخَاطِرَ مِنْ سِبَاعِ الْبَهَائِمِ ، وَهَوَامِ الْأَرْضِ ، وَأَهْلِ الشَّرِّ وَالْفَسْقِ وَالْفَسَادِ .

٢- وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ أَي وَأَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ النَّفُوسِ أَوْ النَّسَاءِ السَّاحِرَاتِ لِأَنَّهُنَّ كُنَّ يَنْفِثْنَ (أَي يَنْفِخْنَ مَعَ رِيْقِ الْفَمِ) فِي عَقْدِ الْخِيُوطِ ، حِينَ يَسْحَرْنَ بِهَا . وَالتَّفَثُ : النَّفْخُ بِرِيْقِ ، وَقِيلَ : النَّفْخُ فَقَطْ . قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : إِنَّهُنَّ بَنَاتُ لَبِيدِ بْنِ الْأَعْصَمِ الْيَهُودِيِّ اللَّاتِي سَحَرْنَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

٣- وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ أَي وَأَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ كُلِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ : وَهُوَ الَّذِي يَتَمَنَّى زَوَالَ النِّعْمَةِ الَّتِي أَنْعَمَ اللهُ بِهَا عَلَى الْمُحْسُودِ .
فقه الحياة أو الأحكام :

١- دلت السورة الكريمة على تعليم الناس كيفية الاستعاذة من كل شر في الدنيا والآخرة ، من شر الإنس والجن والشياطين وشر السباع والهوام وشر النار وشر الذنوب ، والهوى ، وشر العمل ، وغير ذلك من سائر المخلوقات ، حتى المستعيذ نفسه .

٢- لا مانع يمنع من نزول السورة ليستعيذ بها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، والحديث صحيح ، ولا يتنافى مع النص القرآني ، واقتصر فعل السحر بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على مجرد ج ٣٠ ، ص : ٤٧٥

كونه قد صار في بعض أمور الدنيا في حالة صداع خفيف ، وهو معنى التخييل في الحديث ، وقد

يحدث تخيل في اليقظة كالمنام ، ولم يؤثر في ملكاته العقلية على الإطلاق ، كما لم يؤثر فيما يتعلق بالوحي والرسالة لأن الله عصمه من أي سوء ، أو اختلاط فكري ، أو اضطراب عصبي ، كما قال تعالى : **وَاللَّهُ يَعَصِمُكَ مِنَ النَّاسِ [المائدة ٥ / ٦٧] « ١ » .**

٣- خصص الله تعالى في إرشادنا وتعليمنا الاستعاذة من أصناف ثلاثة : هي أولا الليل إذا عظم ظلامه لأن في الليل كما ذكر الرازي تخرج السباع من آجامها ، والهوام من مكانها ، ويهجم السارق والمكابر ، ويقع الحريق ، ويقل فيه الغوث ، وينبعث أهل الشر على الفساد .
وثانيا- الساحرات اللائي ينفثن (ينفخن) في عقد الخيط حين يرقين عليها ، شبه النفخ كما يعمل من يرقى .

وثالثا- الحاسد الذي يحسد غيره ، أي يتمنى زوال نعمة المحسود ، وإن لم يصرّ للحاسد مثلها . وهذا مذموم ، أما الغبطة أو المنافسة فهي مباحة لأنها تمنى مثل النعمة وإن لم تنزل عن صاحبها روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « المؤمن يغبط ، والمنافق يحسد » « ٢ » .

و

في الصحيحين : « لا حسد إلا في اثنتين »
أي لا غبطة .

قال العلماء : الحاسد لا يضّرّ إلا إذا ظهر حسده بفعل أو قول ، وذلك بأن يحمله الحسد على إيقاع الشرّ بالمحسود ، فيتبع مساوئه ، ويطلب عثراته . والحسد أول ذنب عصي الله به في السماء ، وأول ذنب عصي به في الأرض ، فحسد إبليس آدم ، وحسد قاييل هابيل . والحاسد ممقوت مبغوض مطرود ملعون .

وقال العلماء أيضا : لا يضّرّ السحر والعين والحسد ونحو ذلك بذاته ، وإنما

(٤٥٧/٣٠)

(١) انظر تفسير الألوسي : ٢٨٣ / ٣٠

(٢) تفسير القرطبي : ٢٥٩ / ٢٠

ج ٣٠ ، ص : ٤٧٦

بفعل الله وتأثيره ، وينسب الأثر إلى هذه الأشياء في الظاهر فقط ، قال الله تعالى عن السحر : **وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ [البقرة ٢ / ١٠٢]** ، وبالرغم من انعدام تأثير هذه الأشياء في الحقيقة ومنها الأمراض المعدية كالطاعون والسل ، فإنه يطلب شرعا الحذر والاحتياط وتجنب هذه الأسباب

الظاهرة بقدر الإمكان ، عملاً بفعل عمر والصحابة في طاعون عمواس ، والأمر باتقاء العين ، والفرار من المجدوم.

٤- أجاز أكثر العلماء الاستعانة بالرقى أو الرقية لأن

النبي صلى الله عليه وسلم اشتكى ، فراه جبريل عليه السلام ، وقال : « بسم الله أرقيك ، من كل شيء يؤذيك ، والله يشفيك »
كما تقدم. و

قال ابن عباس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا من الأوجاع كلها والحمى هذا الدعاء : «
بسم الله الكريم ، أعوذ بالله العظيم من شر كل عرق نعار ، ومن شر حر النار » .

و

قال صلى الله عليه وسلم : « من دخل على مريض لم يحضر أجله ، فقال : أسأل الله العظيم رب
العرش العظيم أن يشفيك - سبع مرات ، شفي » .

و

عن علي رضي الله عنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل على مريض قال : «
أذهب البأس رب الناس ، اشف أنت الشافي ، لا شافي إلا أنت » .

و

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعوذ الحسن والحسين
يقول : « أعيدكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة » .

و

عن عثمان بن أبي العاص الثقفي قال : قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبني وجع قد كاد
يبتلني ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اجعل يدك اليمنى عليه ، وقل :
بسم الله ، أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد » سبع مرات ، ففعلت ذلك ، فشفاني الله.
ج ٣٠ ، ص : ٤٧٧

و

روي أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا سافر ، فنزل منزلاً يقول : « يا أرض ، ربّي وربك الله ، أعوذ
بالله من شرّك وشرّ ما فيك ، وشرّ ما يخرج منك ، وشرّ ما يدبّ عليك ، وأعوذ بالله من أسد وأسود ،
وحية وعقرب ، ومن شرّ ساكني البلد ووالد وما ولد » .

و

قالت عائشة في الحديث المتقدم : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا اشتكى شيئاً من جسده
قرأ قل : هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ والمعوذتين ، في كفه اليمنى ، ومسح بها المكان الذي يشتكى « ١ » .

والأصح جواز التفت عند الرقى ، بدليل

ما روى الأئمة عن عائشة : أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان ينفث في الرقية .
وأجاز الإمام الباقر تعليق التعويد على الصبيان .
وأما النهي عن الرقى فهو وارد على الرقى المجهولة التي لا يفهم معناها .

(١) انظر هذه الأحاديث والأدلة الثمانية في تفسير الرازي : ٣٢ / ١٨٩ - ١٩٠

(٤٥٨/٣٠)

ج ٣٠ ، ص : ٤٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الناس

مدنية ، وهي ست آيات .

تسميتها :

سميت سورة الناس لافتتاحها بقول الله تبارك وتعالى : قُلْ : أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ .. وتكررت كلمة النَّاسِ فيها خمس مرات . وقد نزلت مع ما قبلها ، وهي مكية عند الأكثر ، وقيل : مدنية كما تقدم . وعرفنا وجه مناسبتها لما سبقها .

وهي آخر سورة في القرآن ، وقد بدئ بالفاتحة التي هي استعانة بالله وحمد له ، وختم بالمعوذتين للاستعانة بالله أيضا .

ما اشتملت عليه السورة :

اشتملت هذه السورة ، وهي ثاني المعوذتين على الاستعاذة بالله تعالى والالتجاء إلى رب الناس الملك الإله الحق من شر إبليس وجنوده الذين يغوون الناس بوسوستهم .

(٤٥٩/٣٠)

و قد عرفنا أن هذه السورة وسورة الفلق والإخلاص تعوذ بهن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من سحر اليهود . وقيل : إن المعوذتين كان يقال لهما المقشقتان ، أي تبرئان من النفاق .

روى الترمذي كما تقدم عن عقبة بن عامر عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : « لقد أنزل الله

ج ٣٠ ، ص : ٤٧٩

علي آيات لم ير مثلهن : قُلْ : أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ ، وَقُلْ : أَعُوذُ بِرَبِّ الْفُلُقِ إِلَى آخِرِ

السورة.

وقال : هذا حديث حسن صحيح ، ورواه مسلم أيضا .

الاستعاذة من شرّ الشياطين [سورة الناس (١١) (٤) : الآيات ١ الى ٦]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤)

الَّذِي يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦)

الإعراب :

مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ إما بدل من شَرِّ الْوَسْوَاسِ وتقديره : أعوذ برَبِّ الناس من شرّ الجنّة والناس ، وإما متعلق بمحذوف تقديره : الكائن من الجنة والناس ، الذي يوسوس في صدور الناس . وفي يُوسِّسُ ضمير الجنّة ، وذَكَرَهُ لأنه بمعنى الجنّ ، وكنى عنه مع التأخير لأنه في تقدير التقديم ، كقوله تعالى : فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى [طه ٢٠ / ٦٧] فتقدم الضمير لأن موسى في تقدير التقديم ، والضمير في تقدير التأخير .

البلاغة :

أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ وما بعدها : الإضافة للتشريف والتكريم والاستعانة ، فقد أضيف الرّب إلى الناس لأن الاستعاذة من شرّ الموسوس في صدورهم ، استعاذوا برَبِّهم مالِكهم وإلههم ، كما يستعيذ العبد بمولاه إذا دهمه أمر . قال أبو حيان : والظاهر أن مَلِكِ النَّاسِ ، إله النَّاسِ صفتان . وقال الزمخشري : عطف بيان للرّب ، فإن الرّب قد لا يكون ملكا ، والملك قد لا يكون إليها .

(٤٦٠/٣٠)

رَبِّ النَّاسِ ، مَلِكِ النَّاسِ ، إله النَّاسِ إطناب بتكرار الاسم ، زيادة في التكريم والعون ، ومزيد البيان ، والإشعار بشرف الإنسان .

ج ٣٠ ، ص : ٤٨٠

الْجِنَّةِ .. وَالنَّاسِ بينهما طباق .

يُوسِّسُ وَالْوَسْوَاسِ بينهما جناس اشتقاق .

ويلاحظ أن الفواصل منتهية بالسين الذي فيه جرس خافت ومهيب وله وقع في النفوس .

المفردات اللغوية :

أَعُوذُ ألتجئ وأحتمي . رَبِّ النَّاسِ مرّبيهم ومعنتي بشؤونهم ، قال البيضاوي : لما كانت الاستعاذة في

السورة المتقدمة من المضارّ البدنية ، وهي تعمّ الإنسان وغيره ، والاستعاذة في هذه السورة من المضارّ

التي تعرض للنفوس البشرية ، وتخصها ، وعم الإضافة ثمة ، وخصصها بالناس هاهنا ، فكأنه قيل :
أعوذ من شرّ الموسوس إلى الناس برّبهم الذي يملك أمورهم ، ويستحق عبادتهم.
مَلِكِ النَّاسِ ، إِلَهِ النَّاسِ صفتان تدلان على أنه تعالى حقيق بالإعادة ، قادر عليها ، غير ممنوع عنها.
الْوَسْوَاسِ الْمَوْسُوسِ الذي يلقي في النفوس خواطر الشرّ والسوء. ويصح أن يراد به المصدر أي
الوسوسة ، كالزلزال بمعنى الزلزلة. الْخَنَّاسِ صيغة مبالغة ، أي من عادته أن يخنس ، أي يتأخر بذكر الله
، والخنوس : الرجوع والتأخر. مِنْ الْجَنَّةِ بيان للوسواس ، جمع جني كإنسي وإنس ، والجن : خلق
مستتر لا يعلم به أحد إلا الله تعالى.

التفسير والبيان :

قُلْ : أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ، مَلِكِ النَّاسِ ، إِلَهِ النَّاسِ أي قل أيها الرسول : أَلجأ وأستعين بالله مربي الناس
ومتعهدهم بعنايته ورعايته ، وخالقهم ومدبر أمرهم ومصلح أحوالهم ، وله الملك التام والسلطان القاهر ،
وهو الإله المعبود الذي يعبده الناس ، واسم الإله خاص بالله لا يشاركه فيه أحد ، أما الملك فقد يكون
إلها وقد لا يكون.

(٤٦١/٣٠)

و هذه صفات ثلاث لله عزّ وجلّ : الربوبية ، والملك ، والألوهية ، فهو ربّ كل شيء ، ومليكه ، وإلهه
، فجميع الأشياء مخلوقة له ، مملوكة ، عبيد له. وإنما قدم الربوبية لمناسبتها للاستعاذة ، فهي تتضمن
نعمة الصون والحماية والرعاية ، ثم ذكر الملكية لأن المستعيز لا يجد عوناً له ولا غوثاً إلا مالكه ، ثم
ذكر الألوهية لبيان أنه المستحق للشكر والعبادة دون سواه.

ج ٣٠ ، ص : ٤٨١

و السبب في تكرار لفظ النَّاسِ هو مزيد البيان والإظهار ، والتنويه بشرف الناس مخلوقات الله تعالى ،
وقال : « ربّ الناس » مع أنه ربّ جميع المخلوقات ، فخصّ الناس بالذكر للتشريف ، ولأن الاستعاذة
لأجلهم.

مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ أي أَلجأ إلى الله وأحتمي من شرّ الشيطان ذي الوسوسة ، الكثير الخنوس أي
الاختفاء والتأخر ، بذكر الله ، فإذا ذكر الإنسان الله تعالى خنس الشيطان وانقبض ، وإذا لم يذكر الله
انبسط على القلب. قال ابن عباس في هذه الآية : الشيطان جاثم على قلب ابن آدم ، فإذا سها وغفل
وسوس ، فإذا ذكر الله خنس.

وقد سلط الله الشيطان على الناس إلا من عصمه الله ، للمجاهدة والفتنة والاختبار ،

ثبت في الصحيح أنه « ما منكم من أحد إلا وكلّ به قرينه ، قالوا :

وأنت يا رسول الله؟ قال : نعم إلا أن الله أعانني عليه ، فأسلم ، فلا يأمرني إلا بخير .

و

ثبت في الصحيحين عن أنس في قصة زيارة صفة للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهو معتكف ، وخروجه معها ليلا ، ليردها إلى منزلها ، فلقية رجلا من الأنصار ، فلما رأيا النبي صلى الله عليه وسلم أسرع ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « على رسلكما ، إنها صفة بنت حبي ، فقالا : سبحان الله ، يا رسول الله ، فقال : إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئا - أو قال : شرا » .

و

(٤٦٢/٣٠)

روى الحافظ أبو يعلى الموصلي عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم ، فإن ذكر الله خنس ، وإن نسي التقم قلبه ، فذلك الوسواس الخناس » .

و

روي الإمام أحمد عن أبي تميمه يحدث عن رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « عشر بالنبي صلى الله عليه وسلم حمارة ، فقلت : تعس الشيطان ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا تقل : تعس الشيطان ، فإنك إذا ج ٣٠ ، ص : ٤٨٢

قلت : تعس الشيطان ، تعاضم ، وقال : بقوتي صرعته ، وإذا قلت : باسم الله ، تصاغر حتى يصير مثل الذباب » .

وفيه دلالة على أن القلب متى ذكر الله تصاغر الشيطان وغلب ، وإن لم يذكر الله تعاضم وغلب .

ثم أبان موضع وسوسته ، فقال :

الَّذِي يُوسُّوسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ أَي الَّذِي يَلْقِي خَوَاطِرَ السُّوءِ وَالشَّرِّ فِي الْقُلُوبِ ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ الصُّدُورَ لِأَنَّهَا تَحْتَوِي عَلَى الْقُلُوبِ ، وَالخَوَاطِرَ مَحَلُّهَا الْقَلْبَ ، كَمَا هُوَ الْمَعْهُودُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ .

ثم بين الله تعالى أن الذي يوسوس نوعان : جنى وإنسى ، فقال :

مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَي أَنَّ ذَلِكَ الْمَوْسُوسُ إِذَا شِيطَانُ الْجَنِّ ، فَيُوسُّوسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ، كَمَا تَقَدَّمَ ،

وإما شيطان الإنس ، ووسوسته في صدور الناس :

أنه يرى نفسه كالناصح المشفق ، فيوقع في الصدر كلامه الذي أخرجه مخرج النصيحة ، فيجعله فريسة

وسوسة الشيطان الجني. وهذا يدل على أن الوسواس قد يكون من الجن وقد يكون من الناس ، كما جاء في قوله تعالى : وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا [الأنعام ٦ / ١١٢] أي ليست العداوة قهرية جبرية ، وإنما بما أودع الله فيهم من قدرة الاختيار ، فمنهم من يختار الإصغاء لوسوسة الشياطين ، ومنهم من يحذر عداوتهم ووسوستهم. فقه الحياة أو الأحكام :

(٤٦٣/٣٠)

علّمنا الله تعالى في هذه السورة رحمة بنا كيفية الاستعاذة من شياطين الإنس والجن ، وعرفنا أنه بصفاته الثلاث : الربوبية ، والملك ، والألوهية ، يحمي

ج ٣٠ ، ص : ٤٨٣

المستعيز من شرور الشيطان وأضراره في الدين والدنيا والآخرة. ومعنى الربوبية يدل على مزيد العناية وحرص المربي.

وإنما ذكر أنه بَرَبِّ النَّاسِ وإن كان ربّاً لجميع الخلق ، لأمرين :

أحدهما- لأن الناس معظّمون ، فأعلم بذكرهم أنه ربّ لهم ، وإن عظموا.

الثاني- لأنه أمر بالاستعاذة من شرّ الناس فأعلم بذكرهم أنه هو الذي يعيذ منهم « ١ » . ثم ذكر صفتي الملك والألوهية ليبين للناس أنه ملكهم الحقيقي ، وإن كان لهم ملوك ، وأنه إلههم ومعبودهم ، لا معبود لهم سواه ، وأنه الذي يجب أن يستعاذ به ، ويلجأ إليه ، دون الملوك والعظماء.

أوضحت السورة أن الموسوس إما شيطان الجن ، وإما شيطان الإنس. قال الحسن : هما شيطانان أما شيطان الجن فيوسوس في صدور الناس ، وأما شيطان الإنس فيأتي علانية. وقال قتادة : إن من الجن شياطين ، وإن من الإنس شياطين ، فتعوذ بالله من شياطين الإنس والجن.

ويلاحظ أن المستعاذ به في سورة (الفلق) مذكور بصفة واحدة وهي أنه « ربّ الفلق » ، والمستعاذ منه ثلاثة أنواع من الآفات ، وهي « الغاسق » والتَّفَّاتِ و « الحاسد » . وأما في هذه السورة فالمستعاذ به مذكور بصفات ثلاث : وهي الرّب والملك والإله ، والمستعاذ منه آفة واحدة ، وهي الوسوسة ، وسبب التفرقة : أن المطلوب في السورة الأولى سلامة النفس والبدن ، والمطلوب في هذه السورة سلامة الدين ، ومضرة الدين ، وإن قلب ، أعظم من مضارّ الدنيا وإن عظمت « ٢ » .

(١) تفسير القرطبي : ٢٠ / ٢٦٠ [.....]

(٤٦٤/٣٠)

و بعد ، فقد سجدت شكرا لله تبارك وتعالى على ما أولاني وأسبغ علي من كمال وفيض النعمة وتمام المنة ، بانتهاء هذا التفسير الشامل للمأثور والمعقول ، والجامع لأنواع البيان وأحكام القرآن ، وهو تفسير العصر ، وذلك في تمام الساعة الثامنة من صبيحة يوم الاثنين المبارك الواقع ١٣ من ذي القعدة ١٤٠٨ هـ ، الموافق ٢٧ / ٦ / ١٩٨٨ م ، وكان العمر حينذاك ٥٦ عاما. وقد تفرغت لهذه المهمة خلال سنوات طوال ، هاجرت فيها إلى دولة الإمارات - العين ، تاركا الأهل والولد ، مستغرقا في عظمة كلام ربّي عزّ وجلّ ، فازددت إيمانا على إيمان.

وكان أول مؤلف لي في بلدتي « دير عطية » من نواحي دمشق الفيحاء ، التي ولدت فيها سنة ١٩٣٢ م ، وهو آثار الحرب في عام ١٩٦٢ م ، ثم تابعت التأليف والبحث وكتبت أغلب مؤلفاتي وبحوثي التي أريت على الثلاثين في رياض دمشق والعين ، فاللهم لك الحمد والشكر ، اجعل كل حرف من كتابك وتفسيره وجميع ما صنفت خالصا لوجهك الكريم ، وحقق به النفع والخير ، وأعتق به من نارك في الآخرة كل جزء من جسمي وروحي ، وشعري وبشري ، وعظمي ولحمي ، وسمعي وبصري ، ومخي ودمي ، وأدخلني الجنة بستر وسلام.

سبحانك اللهم لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، اللهم يا لطيفا فوق كل لطيف الطف بي في أموري كلها كما أحب ، ورضني في دنياي وآخرتي ، واغفر لي ولوالدي وللمسلمين والمسلمات.

ج ٣٠ ، ص : ٤٨٥

الخاتمة

من أحكام الإسلام المعلومة من الدين بالضرورة ، أي بالبدهة أن إنزال القرآن المجيد على نبي هذه الأمة الإسلامية قصد به العمل بكل ما جاء فيه من الأحكام والشرائع والعقائد والآداب والأخلاق والمواعظ ، وأنه لا يكفي المسلم أو المسلمة مجرد قراءته أو تلاوته للتعبد والبركة ، وإنما للاستفادة بما جاء فيه ، فهو دستور الأمة ، ونظام حياة الفرد والجماعة ، والرعية والدولة.

(٤٦٥/٣٠)

و السائد في الوسط العلمي أنه لا يستغنى بتفسير قديم عن تفسير آخر ، لاختلاف مناهج المفسرين ، وامتياز كل تفسير بميزة لا تتوافر في الآخر ، فهذا في العقيدة ، وهذا في الأحكام ، وذاك في الآثار والروايات الكثيرة ، وآخر في التأويل بالمعقول أو في العلوم الكونية ، والكل يكمل بعضه بعضا ، أما في العصر الحديث فيصعب على كل مسلم أو بيت اقتناء جميع التفاسير المطولة والمتوسطة والمختصرة ، فضلا عن عسر فهمها أحيانا ، وإطالتها ، واستطرادها في كثير من الأحوال لأمر بعيدة أو قريبة عن التفسير ، وينقصها جميعها التفسير الشامل الموضوعي للآيات ، لفهمها جملة واحدة ، بسبب عنايتها بالجزئيات والفرعيات ، دون وجود تصور متكامل أو عام فيها للآية أو لطائفة من الآيات ، وصعوبة إدراك مشتملات السورة وارتباط أجزاءها ببعضها ، أو التعرف على موضوعها المقصود . وكذلك يكثر السؤال في وقتنا عادة عن أحسن تفسير يعتمد عليه لمتوسط الثقافة ، فلا يكاد المرء يجد جوابا شافيا لأن القديم وعر المسالك ، والجديد فيه

ج ٣٠ ، ص : ٤٨٦

هنات وسقطات ، أو جنوح لتأييد بعض الآراء المذهبية ، أو تطرف وبعد في التأويل وإغراب في بعض الأحيان لإرضاء أذواق العصر .

لذا وجب وضع تفسير شامل معتدل غير متطرف ، يجمع بين مزايا التفاسير المختلفة ويسر على القارئ والتالي فهم الآيات الكريمة بدقة ووعي ، ويحيط بكل ما هو ضروري يحقق مقاصد القرآن العظيم في العقيدة والعبادة والتشريع والآداب والأخلاق والسلوك القديم في الحياة ، ويفسر القرآن بالقرآن وبالسنّة الصحيحة والسيرة الثابتة ، وهذا ما أوردته في هذا الكتاب ، كما أردت بيان ما يستنبط من الآيات من أحكام شرعية مختلفة.

(٤٦٦/٣٠)

و ذلك بعد أن ألح علي بعض إخواني لتحقيق هذه الغاية ، فتوقفت أولا ، ثم شرح الله صدري للعمل الذي يحتاج لجهود مكثفة ووقت طويل الأمد ، فوضعت هذا التفسير الشامل لطريقي أهل المأثور والمعقول ، والجامع لأحكام القرآن الذي أنار الطريق أمام كل تال للقرآن ، بعبارة سهلة واضحة ، وأسلوب سلس يبين ، ومنهج منظم متدرج من المفردات إلى الكليات ، وكان بحمد الله تعالى جامعا بين طريقة الوجيز والوسيط والمبسوط ، فبيان المفردات اللغوية والإعراب والبلاغة يحقق الإيجاز لمن يكتفي به والتعرف على أسباب النزول والمناسبة بين الآيات والسور وقصص القرآن والبيان لكل طائفة من الآيات ، يلي مطلب التوسط في المعرفة والعلم والانتقال إلى بيان فقه الحياة بمعنى « الفقه الأكبر الشامل للعقيدة والأخلاق والأعمال والأحكام العملية المستنبطة من الآيات ، يتجاوب مع رغبة من

أراد التوسط والإطالة والاستيعاب.

ومن أجل السير في هذه المراتب الثلاثة المتدرجة ، قد يوجد تكرار بينها بقصد تلبية الحاجة ، وتيسير
المطلب دون حاجة للرجوع إلى ما سبق.

أما المصادر : فقد نبّهت عليها في المقدمة ، وأكرر القول بأنني اعتمدت على
ج ٣٠ ، ص : ٤٨٧

(٤٦٧/٣٠)

أغلب ما كتب في التفسير قديما وحديثا ، مبتدئا بتفسير إمام المفسرين ابن جرير الطبري في الآثار
والمعقول معا وأسباب النزول وبعض التصويبات والترجيحات ، ثم اعتمدت على تفسير الكشاف
للمخشري ، والبحر المحيط لأبي حيان التوحيد ، وغرائب القرآن للنظام الأعرج وغيرها كالبياضوي
والنسفي وأبي السعود والجلالين في اللغويات والمعاني الدقيقة ، والمناسبات ، وعلى تفسير الفخر
الرازي « التفسير الكبير » في العقائد والإلهيات والكونيات والأخلاق وبعض الأحكام ومناسبات
الآيات والسور ، وأسباب النزول ، مع الرجوع في بيان الأسباب أيضا إلى « أسباب النزول » للواحي
النيسابوري ، و « أسباب النزول » للسيوطي.

كما اعتمدت على تفسير الإمام القرطبي ، وأحكام القرآن لابن العربي ، وأحكام القرآن للجصاص
الرازي في معرفة الأحكام الفقهية ، ورجعت في ذلك وغيره أيضا إلى تفسير الحافظ ابن كثير وفتح
القدير للشوكاني والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ، لبيان معاني الآيات وتأبيدها بالأحاديث والأخبار
الصحاح ، كما استقيت بعض المعلومات من تفسيري الخازن والبغوي.
واستأنست أحيانا بعبارات بعض المفسرين الجدد الجميلة والمفيدة ، كتفسير المنار للشيخ رشيد رضا ،
ومحاسن التأويل للقاسمي ، وتفسير المراغي ، وفي ظلال القرآن ، رحم الله الجميع وجزاهم عن
الإسلام خير الجزاء.

وقد تجنّبت الأخذ في أسباب النزول وغيرها بالأحاديث والروايات الضعيفة والإسرائيليات الدخيلة التي
لا تتفق مع عصمة الأنبياء ، وضمان سلامة الوحي.

وأما الإعراب فمرجعي الأصلي كتاب (البيان في إعراب القرآن) لأبي البركات بن الأنباري ، وأما البلاغة
فمرجعي في الغالب كتاب (صفوة التفاسير) للشيخ محمد علي الصابوني ، وأما قصص الأنبياء فكنت
أرجع مع الحذر

ج ٣٠ ، ص : ٤٨٨

(٤٦٨/٣٠)

لكتاب (قصص الأنبياء) للأستاذ عبد الوهاب النجار ، وأما أحداث ووقائع الغزوات والسيرة فعمدني فيها كتب السيرة الشهيرة كسيرة ابن هشام ، وابن إسحاق ، والبداية والنهاية لابن كثير وغيرها مما كتب قديما وحديثا .

وأستطيع أن أقول عن خبرة وتجربة وبعد أن عانيت التأليف في رحاب الجامعات مدة ربع قرن فأكثر في الفقه الإسلامي وأصوله وفي الحديث النبوي ، وتفسير كتاب الله وغير ذلك : إنه لا تصح العقيدة ، ولا تشرق في النفس معانيها إلا بالقرآن ، ولا يستقيم سلوك مسلم إلا بفهم كتاب الله ، ولا تلين النفس بعد القرآن إلا بالحديث النبوي وروحانيته الفياضة ، ولا يصح عمل المسلم إلا بالأحكام الشرعية المقررة في الفقه ، ولا يعصم العقل والفهم عن الخطأ ، ولا تنضبط أحكام الشريعة إلا بأصول الفقه . ولا أجد الآن خيرا من إهداء شيء للمسلمين في كل مكان ، حكاما ومحكومين ، غير هذا الحديث النبوي الشريف الذي أخرجه الترمذي والدارمي عن علي بن أبي طالب أمير المؤمنين رضي الله عنه مرفوعا : « كتاب الله تبارك وتعالى فيه نأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والدكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تشعب معه الآراء ، ولا يشعب منه العلماء ، ولا يملأه الأتقياء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنفضي عجائبه ، ولا تفنى غرائبه ، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا : إنا سمعنا قرآنا عجبا من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن دعا إليه ، هدي إلى صراط مستقيم » .

(٤٦٩/٣٠)

وكلمتي الأخيرة : إنني في نفسي بالذات كلما فسرت آية أو سورة من كتاب الله ، ازدادت إيمانا بصحة تنزيل هذا الكتاب المجيد على محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ج ٣٠ ، ص : ٤٨٩

و بأنه الكتاب الوحيد المنقذ للبشرية من تخبطها في دياجير الظلمة والضلال ، كما ازدادت انبهارا وثقة وبقينا بإعجاز القرآن وعظمته ، فمهما حاولت إحصاء المعاني والأحكام ، يظل كلام الله عز وجل البحر الزاخر والفيض العارم الذي لا يمكن الإحاطة بمراوده ومشتملاته ، ولكن عملي جهد المقل والعبد الضعيف الخاضع لله وحده ، والعاجز عن إدراك جميع معاني القرآن ، والذي يكفيني إعلانه هو القول بأن القرآن العظيم هو الكتاب الفدّ الأول الذي أثر في فكري وسلوكي وتكوين شخصيتي ، فاللهم وفقنا

جميعا للعمل به ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.
الأستاذ الدكتور/ وهبة مصطفى الزحيلي رئيس قسم الفقه الإسلامي ومذاهبه بجامعة دمشق

(٤٧٠/٣٠)